MADHAR ASSEF

مظهر عاصف

السادسة صباحًا

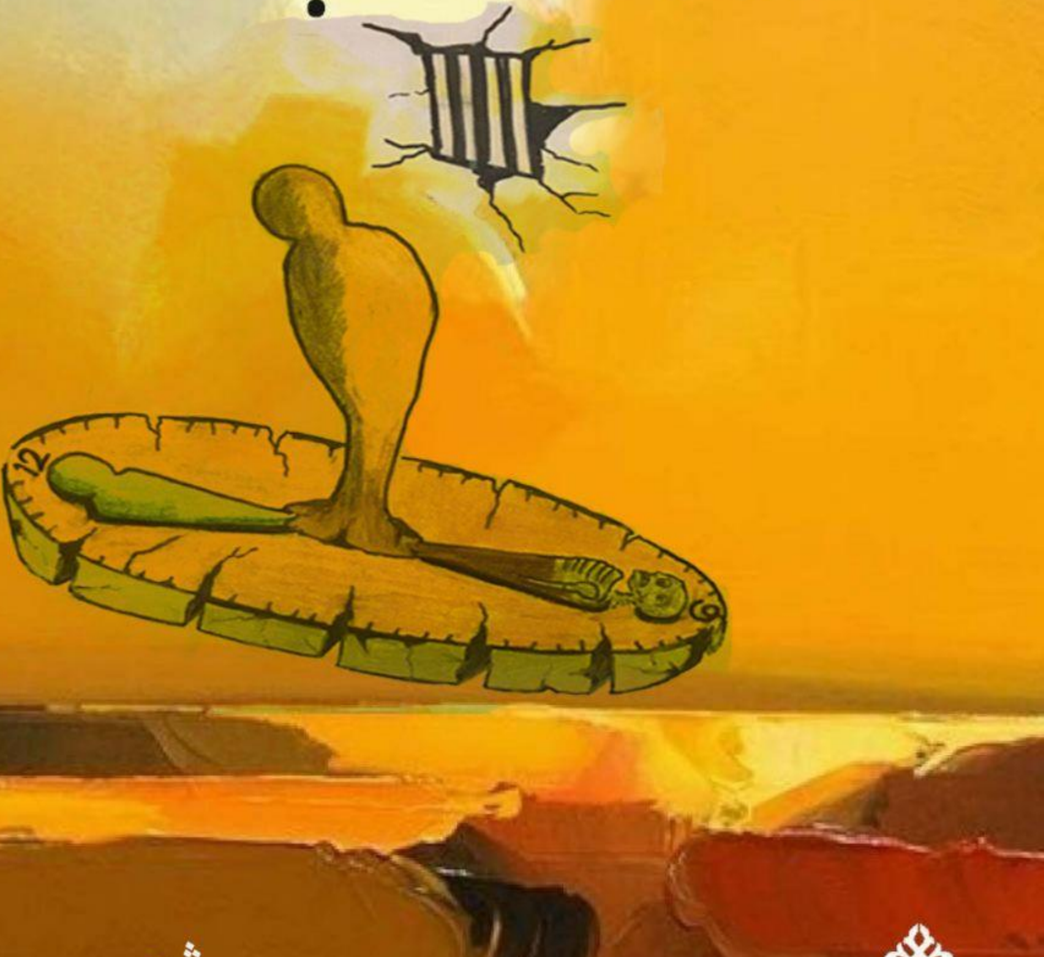

شعر

دار الجيل العربي ناشرون
الطبعة الأولى
2022

ديوان:

السَّادِسَةُ صَبَاحًا

شعر:

مَظهَر عاصِف

تأليف: "مظهر عاصف" أحمد عودة

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية:

439 /8/2019

ردمك: ISBN 978-9957-67-334-5

الطبعة الأولى 2022م 1443هـ

جميع الحقوق محفوظة للجمهور

تصميم الغلاف: محمد أيوب.

دار الجيل العربي للنشر والتوزيع

عمان – الأردن *Amman - Jordan*

خلوي 00962 79 8789591 *Mobile*

e-mail: aljeelalarabi@yahoo.com

تنويه عابر:

يُسمحُ للقارئ بإعادة إصدار هذا الكتاب وأي جزءٍ منه أوتخزينه واستنساخه ونقله، كليًّا أو جزئيًّا، وفي أيِّ شكلٍ وبأيِّ وسيلة، سواء بطريقة إلكترونيّة أو آلية، أو الاستنساخ الفوتوغرافي، والتسجيل واستخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها، ولا يلزم الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر بناء على رغبة الشاعر.

مُقدِّمَة

دامت علاقتي سرًّا بأوّلِ قصيدةٍ في هذا الدّيوان سنواتٍ طويلة؛ غير مدركٍ حين تواعدنا في السّادسة صباحًا لأوّلِ مرّةٍ أنْ ستغوي عشراتِ القصائدِ بالانضمام إلى جوقتِنا؛ سامحةً لي أن ألقي على مسامعِها ما استُنسِخَ من سُلالتِها عبرَ تفعيلاتِ الوطن والوجدان والفلسفة والحبيبةِ والسّياسة؛ ناهيكَ عن الآخر أو الظلِّ أو الضدِّ، الذي أستحضرُه كثيرًا اعترافًا منّي بالازدواجيةِ التي لا يُمكن للمثقّفِ أن يتخلَّصَ منها بسهولةٍ؛ أثناءَ تشريح ذاتهِ ومجتمعه بمبضعِ الشّعر؛ سيّما حين تُغريني القصيدةُ الجاهلية باتِّباعِ نهجِها الدّرامي أثناءَ تحرّرها من وحدةِ الموضوع، لأجدني متماهيًا بشكلٍ أو بآخر مع هذه الخاصِّية الجميلة دون وعيٍّ؛ أو بوعيٍّ تامٍّ مني.

حدث اللقاءُ الأول بعد أن وجدتني عاطلًا عن العملِ فجأةً ضمن أحداثٍ شكسبيريّة غريبة، ولأنّني تعوَّدت أن أستيقظَ في السّادسة صباحًا؛ فقد سمحتُ لعينيَّ بعد جفاءٍ وقعَ بيني وبين القراءةِ بمراقبةِ الكادحين وهم في عجلةٍ من أمرهم لموافاةِ أعمالهم، في الوقتِ الذي لا عملَ أذهب إليهِ، ولا مكانَ ينتظر تواجدي فيه، ووسطَ هذا الكمِّ من الإحباط والإحساسِ بالعجزِ أو الفشلِ الفراغيّ لجأتُ إلى حاسوبي محاورًا إيّاه قبل أن أحملَه مصادفةً معي بما يحتويهِ للقاءِ قارئةٍ ما؛ حتى إذا أنشدتُ أوائلَ مسودّة قصيدتي الجديدةِ على مسامعها وجدتها قد أجهشت بالبكاء وسط صدمتي مما حدث... أطرقتُ مُفكِّرًا فلم أجد ما يستدعي هذا الانفعال

والحزن الذي أبدته تفاعلًا مع ما قرأت؛ بيدَ أنّني أيقنتُ بعد ذلك أن جملةً واحدةً كفيلةٌ أن تفضحَ داخلك إلى حدِّ كبير.

هربًا من الجوِّ الذي خيَّم علينا بسبب تلك القصيدة أنشدتُ على مسامِعها قصيدةً ساخرة، فاستغرَبَتْ ضحكًا حتى توسَّلَت إليّ أن أتوقف؛ وقد وضعَت يديها على بطنها كدليلِ اكتفائها بهذا القدرِ من الضّحك، مصرَّة على أنّني أجيدُ الشّعرَ السّاخر أكثر من أيِّ ضربٍ من ضروب الشّعرِ، وعلى الرّغمِ من أنّني أتفق معها غير أن رأيها أغاظني لدرجةٍ غريبة؛ هذا لأنّني كنتُ أهرب من هذا الفنِّ مخافةَ أن أُعرَفَ وأقدَّمَ إلى القارئ من خلالِه، لأنّني ببساطةٍ أتقن كتابتَه لا إلقاءه... ولأن وجهي أو صوتي يختزلان الكثير من الملامحِ الحادّة غالبًا؛ فقد ألزمتُ قصيدتي بما أراه يناسبني؛ لا ما تراني هي مُناسبًا له... ولأنَّ القصيدةَ _من وجهةِ نظري_ لا تحتملُ غزارةَ الأفكار والآراء فقد لجأ الكثيرُ من الشّعراء المعاصرين وأنا أحدهم إلى كتابةِ القصّة أو الرّواية، لأجدني بعدها مغتاظًا من الآراء التي تفضِّل نثري على شعري، حيث لا أجدُ مُسوِّغًا للمقارنةِ بين مُختلفين وإن جاءا من رحمٍ واحدة، فمنطقيًّا أن الشّاعرَ بُعيدَ تحرّرهِ من قيودِ الوزن والإيقاعِ سيبدو أكثر براعةً وعمقًا واحترافيّة في نصّه المتاحِ له أن يرفدَه بأيِّ شيء كان.

تشكّلت هذه القصائد تباعًا مِن الكثيرِ مما رأيتُ وتخيّلت وشعرتُ وتمنيت والقليلِ منّي، بيد أنّي كتبتها بعدَ مئاتِ القصائد التي أعدمتُها لركاكتها، وقبل وبعدَ عشراتِ القصائد التي قرّرتُ بعد تجاوزي سنَّ الأربعين أنّها صالحةٌ للنّشرِ والتّداول حيث أرفقتها

بديوان: فسلفاتُ جنازة، وثلاثة دواوين لم تُطبع بعد؛ إذ كنتُ قد قرّرتُ مذ تعرَّفتُ إلى الكثيرِ من الشّعراءِ المُبدعين ألّا أتعجّلَ بطباعةِ ديوانٍ قد أندم على نشرهِ لاحقًا، لذا كنتُ حريصًا على المنبرِ ألا أقرأَ قصيدةً جديدةً إلا بعد أن تأخذ حقَّها الكامل بالانتظارِ في المجهولِ حتى أملَّ أو تملَّ منّي.

قد أمتلك الجرأةَ أن أقول أن هذه القصائد ليست أجمل ما كتبت، بل وقد أضفتُ للدّيوان العديد من بواكير تجربتي الشّعرية التي نجت من حفلةِ الإعدام الجماعيّة يومًا، لكنّها أكثر القصائد التي تمثّلُني والأكثر تمرُّدًا على الإيقاع الذي أعشق؛ والوزن الذي أحترم، بيد أنَّ أنانيتي وأنانيّة الطّرح فيها منحتني الضّوء أن أكسرَ القواعدَ التي أتقنها، متجاهلًا بيتَ القصيدة الزّجاجي الذي قد يرجمُه القرّاء أو النقّاد بحجارةِ الآراء المتفاوتة؛ فقد يجدني مَن يتقن العَروض رميتُ بعرضِ الحائط الوزن في مقطعٍ ما أو قصيدة؛ بينما يراني التزمتُ به في مكانٍ آخر أكثر من التزامِ «الخليلِ» ذاته ببحوره، حتى إذا تقبّل هذا وجدني لم ألجأ للقافيةِ في قصيدةٍ ما مطلقًا؛ بينما نقشتها نقشًا وببراعةٍ على وجهِ قصيدةٍ أخرى.

يحدثُ هذا عندما تكتبُ كثيرًا؛ عندما يمتلئُ حاسوبُك بالقصائد العمودية والتّفعيليّة والنّثر والمقالة والقصّة والرّواية، ثم تجد أنَّ أيَّ شيءٍ قد يستجدُّ كتابيًّا على قلمكَ بدا مكرّرًا وممجوجًا بطريقةٍ لا تطاق، وقد يحدثُ حين يقودني القدرُ يومًا أن أجلسَ مع مَن سيسألني بعد قراءتي لقصيدة لن تنجو بعد ذلك بنفسها من الإعدام جرّاء سؤاله: لقد ذكرتَ في قصيدتك هذه جملة "نمل البساتينِ"

فلماذا قلتَ "البساتينِ" وليس الحقولَ أو المنزل أو الطّريق أو لمَ لم تقتصر على النّمل دون إضافتهِ لشيء؟ ولأنّني كنتُ قد ذكرت في تلك القصيدة: «فلا الفئرانُ منكَ تخافُ أو نملُ البساتينِ» ملتزمًا بالنّونِ المخفوضةِ كقافيةٍ طوال سطورِ القصيدة فقد ضحكتُ؛ لأنّني أردتُ ذكرَ ضعفِ النّمل فقط، لا صفة النّمل التي أجبرتني عليها القافية فقط، ومذ ذاك الحين كانت القافيةُ في قصيدتي خيارًا لا قيدًا.

لعلَّ هذا الموقف ثم احتكاكي عن قرب بالعديد من الشّعراء المعاصرين، والذي يبحث كلٌّ منهم عن تفرّده واختلافِه، دفعاني للتّحرر من قيود الشّعراء القدامى، بل ومن أساليب شعراء مدرسةِ الإحياء والمهجر والحداثة الرّاحلين، مدركًا أنّني كلّما تمعَّنت بما يذهبون إليهِ عبرَ جنونهم أو شطحاتهم الفنيّة والبلاغيّة كلّما استنبطتُ هُويتي الشّعريّة التي أريد. والحقيقةُ إنّ الخروجَ عن القواعد المألوفةِ تعني بأنّني لا أصلح لمسابقاتِ الشّعرِ، ولا للدّفاعِ عن النّهجِ الذي اتبعته رغبةً منّي بالتّحرّر، لا بغضًا بتلك القواعد، فربّما أجدني قد غضبتُ من القصيدةِ أو أغضبتُها مفارقًا إيّاها لشهورٍ عديدة دون سبب يُذكر؛ قبل أن أطرقَ بابها مُدركًا بعد مصالحتي إيّاها أنّني أكتبُ الشّعرَ الآنَ من أجل الشّعر.

أمَّا قصّتي معه فلستُ أذكر متى بدأت تحديدًا؛ فلربّما كتبتُ الشعرَ بعد تعلّمي الإملاء والقراءة جيدًا، حيث إنّ في ذاكرتي الآن _وقد أتممت في هذا اليومِ الواحد والأربعين من عمري_ موقفًا ضبابيًّا لطفلٍ صغير كتبَ أبياتًا شعريةًّ عن الحَمَام فوقَ سطحِ منزلهِ في

حي الربوة- ماركا الجنوبية- عمّان؛ وطارَ فرحًا بما خطَّت يداه، لتضحكَ مما كتب أخته الكبرى مداعبةً إيّاه قائلةً: "هذا ليس بشعر، عليكَ أن تعرفَه أولًا ثم أن تكتبه". ولستُ أذكر إن كنتُ قد تعرَّفتُ عليهِ من خلالِ مكتبةِ والدي، أو من القصائد المدرسيّة، أو من خلالِ انتشائي بالأغاني الفصيحة، لكن ما أذكره جيّدًا أنّ أوّل ديوان اشتريته كان «لنزار قباني»، بعد أن صدمني صديقٌ لي بحقيقةٍ غريبة وهي أن «عبد الحليم» في أغنية «قارئة الفنجان» مجرد مطرب لم يكتب كلماتِها ولم يلحّن هذه الأغنية الجميلة.

وقد أضيفُ للمواقفِ المتعلّقةِ بالشّعر موقفًا آخر، كان سيبدو ضبابيًّا لولا الرّسالةُ التي أحتفظ بها من والدي والتي ابتدأها بجملةٍ: "لقد علَّمناك الكلام، ولم يكن لنا فضلٌ عليك؛ فكلّ الآباء يعلمون أبناءهم ذلك، كما لم يكن لنا فضلٌ عليكَ في الكتابة؛ فهذه موهبةٌ يهبها الله لمن يشاء، وفطرةٌ يفطرُه عليها ليختارَه الإبداعُ أو ليختار هو الإبداع طريقًا، ونهجَ حياة... الخ".

فهذه الرّسالة وجِّهت لي في 23 نيسان 1995م وتحديدًا بعدَ أن قرأتُ على مسامعهِ قصةً من تأليفي، ولأنّه «أحمد عودة» أيّ ذلك الأديب القاصّ والرّوائي والسيناريست والشّاعر أحيانًا؛ فكان من الطّبيعي أن يوجّهَ قلمي بطريقةٍ صحيحة؛ وأن يقومَ بنصحي وتشجيعي، بيد أنه في الحقيقةِ بعدما تيّقن أنّ هذه الموهبة التي ورثتُها منه بدأت تأخذُ مسارًا جدِّيًّا، وأن اهتمامي بها طغى على جميعِ اهتماماتي الأخرى؛ راح يثنيني عن الأمر بجميع الوسائل، حتى أنه كان يقذفُ القصيدةَ في وجهي جرّاء ركاكتها وضعفها من

وجهةِ نظره، بل ولطالما سخرَ مما أكتب مقارنةً بما يكتبه الشّعراء الحقيقيون، وفورَ إدراكي أنّه كان محقًّا بما لا يدع مجالا للشك؛ لم يدرك هو حينها أن أسلوبه هذا حفَّزني أكثر لإتقان ما أريدُ إتقانه، سيما أنَّ النّقد المباشر هو النّقد الحقيقيّ الذي يحتاجه من يريد التّطور، لا النّقد المغموسِ بالخجل والمداراة أو المواربة.

ولعلَّه توفي _رحمه الله_ غير مدركٍ أنّ القصيدة الأولى التي امتدحَها رغمًا عنه _على حدِّ وصفه_ ونهضَ من مكتبهِ ليصافحني قائلًا: "للأسف يجب أن أقرَّ بأنّك شاعر"، لو لم يمتدحها لكنتُ صدقًا هجرتُ الشّعرَ الذي لن أتقنه؛ حيث إنّي عرضت عليهِ هذه القصيدة في الثّانية والعشرين من عمري على ما أظن.... لم يكن متناقضًا بين رغبتهِ أن أكون أديبًا وبين هجري للأدب نهائيًّا، فهو مَن أسماني "مظهر عاصف" متنبِّئًا بما سأرثه عنه؛ حيث إن هذا الاسم سيساعدُ من وجهةِ نظره على الانتشار والتّميّز إن راق أدبي للآخرين، لكنه لم يرد في المقابل أن أعوِّل على الأدب تمامًا كما فعل هو؛ فيسرقني العمرُ دونَ أن أحقّقَ على الصّعيد المهني أمورًا عليَّ تحقيقها؛ في وقتٍ أصبحت فيه المادّةُ هي المعلمُ الرّئيسُ لوجهِ مجتمعنا الحديث.

وجدتُني كشاعرٍ أرضاه لنفسي في الثّامنةِ والعشرين من عمري لا قبل ذلك، لأنّني في ديوان "فلسفات جنازة" أدرجتُ قصيدتين مما كتبتُ في ذاك العمر راضيًا عنهما تمامًا، كما أدرجتُ عدّة قصائد في دواوين أخرى كتبتها بعد هذا العمر، على أني في هذا الدّيوان أدرجت ما يقارب عشر قصائد بعد تعديلات طفيفة على محتواها

ووزنها... حدثَ هذا بعدَ أن قمتُ بإلقائها ومعرفةِ تفاعلِ الآخرين معها؛ إذ إنّ الشّعرَ _من وجهةِ نظري_ يُسمع أكثر من كونِه يقرأ، هذا لأنّ الشّاعر أو المُلقي المتمكّن من شعرِه أو شعرِ غيرِهِ يضفي عبر صوتِه المعنى الدّلالي للحرف أو الكلمةِ حسب مقتضى معناها في الجملة الشّعريّة، فكلمة «الصّمت» مثلًا التي قد يتناولُها القارئ كمعنى للسّكوت، قد يسمعها من فم الشّاعر عبر إحساسه أثناء نطقها كمعنًى ناطق، أو للدّلالةِ على السّخرية، أو الموت، أو الابتسامة.

لأجل ذلك ومن خلال قصيدة «الدّاية» في ديوان: "فلسفات جنازة" تحدّثت عن حقيقةِ صوتي الذي لا يصلحُ للغناءِ أو الدّندنةِ بينما يصلحُ للشعر لا لأنه جميل وبنبرةٍ مميزة، بل لأنه قادرٌ في كثيرٍ من الأحيان على نقلِ القصيدةِ من داخلي إلى خارجي بالطّريقةِ التي أحبّ أن يراها القارئ من خلالها، ولعلَّ في هذه القصيدة أيضًا تناولت موضوعًا قد أطرقُه مرارًا، بعدّة طرق ووجوه صوريَّة وتشبيهيةٍ في قصائد أخرى وهو: لحظة مولدي وما تلاها من أحداث، حيث ستعودُ والدتي في 31 أوكتوبر 1980 من «مستشفى البشير-عمان» بطفلٍ إلى البيت، لتكتشفَ أن نزيفًا حادًا ينفرُ من سُرّته قد صبغَ ثيابه البيضاء باللون الأحمر القاني... سارعَت عبثًا لربط السُرَّةِ التي يبدو أنها قُطعت خطئًا بسبب إحكام ربط الخيط عليها من قبل المرضة، ورغم المحاولات المرتجفة ومساعدة الجارات إلَّا أن النّزيفَ لم يتوقف إلَّا عند حملِ الطّفل في سيارةٍ لا تعرفُ منطقتنا غيرها، وعبرَ شوارعٍ بدائيّة

باتجاه عيادةِ طبيبٍ على وجهِ السّرعة التي تشابهت مع معاينته لي قبل أن يصارحَهم قائلًا: "تلزمنا معجزةٌ إلهية لمنحِ هذا الطّفل الحياةَ لليلةٍ أخرى، لكنّني أستبعد حصولها ليحيا للغد"، ثم بعد ثانيةِ صمت أضاف مُستسلمًا: "العَوض بوجه الكريم".

لكنَّ المعجزةَ حدثت، وللمشيئة الإلهية كان القرار أن يحيا هذا الطفل لتكون هذه الأحداث هي المؤشّر الأوّل على حياةٍ مستقبليّةٍ واضحة الملامح، ولأنّ لحظتيّ الموت والولادة ترافقتا عبر أنفاسي مبكرًا، فقد استحضرتُها كثيرًا كلما شعرتُ بالحزن النّاتج من الدّاخل عبرَ ما يلامسني من أحداث شخصيّة، والخارج عبر ما يعنيني من الأوطان العربيّة المقهورة التي أنتمي لحزنها وأوجاعها؛ سيما حين أنساقُ بكاملي نحو قضية آبائي وأجدادي بَدءًا من اللجوء والنزوح واغتصاب أرضهم الرملاوية في الوطن الذي كان يُسمّى فلسطين فالتصَقَت كلمةُ «المحتلة» إضافةً منها لاسمهِ ووجعهِ وواقعه، انتهاءً بوطني الآخر «سهام»؛ تلك الأمّ التي لم تزل تعتني بي وترعاني بكافَّة حواسّها ومشاعرها؛ فكأنما الأربعين التي مضت من عمري لم تقنعها بعد أن جرحي توقف عن النزف، وأن باستطاعتي غسلَ الدماء عن ثيابي بمفردي؛ وإن كان للقصيدة سلطةً لا شك على الشاعر، فإن للأم سلطةً على كلِّ شيء دون أن يكونَ بينهما "داءُ الضرائر".

وعطفًا على ما سبق فقد تبدو هذه المقدّمة غريبةً بعضَ الشّيء... ربّما... ربّما لا! لكنّها تواجدت لأن هذا الدّيوان تحديدًا يختلفُ عن أيِّ عمل أدبيّ عملت عليهِ؛ فقد كتبتُ معظمَ ما جاء به في أشدِّ

لحظاتِ حزني، ثم وجدتني بعد سنواتٍ أنقِّحه وأجمعه بعنايةٍ في وقتٍ أجدُني فيه بعيدًا عن بيتي ومكتبي ومكتبتي وعملي وحياتي التي أعرف لظرفٍ قاهرٍ غريب ارتضى ليَ الاغترابَ ولم يرتضِ الغربة؛ فأردتُ لهذا العملِ أو لهذه الكلمات أن تكونَ شاهدةً على أحداثٍ مررت وأمرُّ بها أمامَ نفسي؛ كيلا أنسى يومًا الأسباب التي دفعتني لقولِ ما أردت قولَه؛ أو ما احتفظت به وأحجمت عن قوله هنا، حيث إنّ الذّاكرةَ السّعيدةَ قد تقوم أثناء تناسيها وغبطتها للحظةٍ بإعدام الكثير من الحزنِ في الخفاء.

فالسّادسةُ صباحًا في بيتي من كلِّ يومٍ ولوقتٍ طويل شهدتْ الكم الأكبر من هذه القصائد، وما اختتمتُ به الدّيوان في النّهاية من قصائد "المهشّمات" القصيرة المنفصلةِ عنه، أمّا رصيفُ متجري في مسقطِ روحي - جبل النصر- عمّان، فقد تقاسمَ الشّهادةَ مع هاتفي على ما تبقّى منها أثناء عملي أو حديثي أو مراقبتي للمارّة، التي يحملُ الكثيرُ منهم قصصًا شعريّة وأدبيّة مختلفة، لذا كانت القصائدُ على لساني أحيانًا، وعلى لسان الآخر أحيانًا، وعلى لسانِ الأنثى أحيانًا أخرى، لا لأن القصيدةَ كما يدَّعي الشّعراء تكتبُ نفسها، بل لأنّها أرادت ذلك فانصعتُ لرغبتها في كثير من الأحيان.

مظهر عاصف

إلى أحدِ الرجالِ النّادرين في زمنٍ اكتظَّ بالأشباه، وقد شرَّعَ ذراعيهِ وقلبَه ووجهَه على الدوام لي، فكانَ أبًا وأخًا وصديقًا وشمسًا لا تغربُ أبدًا:

حسين الحلو.

إلى من ربَتَت على خافقي، وهدهدَت غربتي، وتموسَقَت في قصائدي عبر ذاكرةِ الحروف الأولى والأخيرة... ولم تزل:

فدوى عودة.

إلى التّراب الذي يحتضنُها في مادبا... إلى بُحَّتِها في صوتِ أمّي؛ وانعكاسِها في قلبٍ تعبًّأ بوفائها؛ فظلَّت بُعيدَ الرحيلِ توأمًا لنورٍ حاضرٍ في الجوار:

الخالة أم عبد الله الطيّب.

إليهم أهدي ما حاكتهُ السّادسةُ يومًا من خلالي.

السّادسةُ صباحًا

قصيدتي

لا تأكلُ الطّعامَ في القصورِ مِن صنيعِ خادمَة

وترفضُ المسيرَ في رياضة الصّباح عارية

لم تشترِ حروفَها من متجرٍ "مُؤدلَجٍ"

يرشُّ فوقَ خلطةِ الحروفِ رشَّةَ الهروبِ

والطّواعية

قصيدتي لم ترقص الديسكو أمامَ مَن يريدُها

ولم تَبع أساورَ البيانِ للسّلطانِ والزّبانية

لم تلبس القصيرَ كي يرى التفافَ فخذِها مقامرٌ

إلى سجلِّ نقرشاتِهِ الطّويلِ قد يضيفُ غانية

لا تشربُ النّبيذَ

لا تنامُ عندِ أعوجِ اللسانِ إن تأخرت

في الليلِ...

أو تنامُ في عبارةٍ مُرائية

قصيدتي... حبيبةٌ

طفولةٌ عجيبةٌ

تاريخُ مَن تشرّدوا

وذكرياتُ غاضبٍ أسرارُه علانية

فوجهُها كوجههِ

وصوتُها كصوتهِ

وكلُّ ما يقولُه الصّفيحُ والخيامُ

واللجوءُ... والنّزوحُ... عبرَ حبرِها هيَ...

السّادسةُ صباحًا

ممطرةٌ آلامُ الليلِ بما حدثَ صباحًا

في السّادسةِ تمامًا

مدنٌ غافيةٌ في عينٍ لا تبصرُ مُدَنًا

غرفٌ مُهدّمةٌ تكدِّسُها الخِيامْ

كلُّ الأزقّةِ تسيرُ مُغَلَّقَةَ الجفون

خوفٌ تعالجُه تساويفُ التّوتر إذ ينام

ثديٌ تعرَّضَ لافتراسِ الطّفلِ

يبكي لا ينام

لافتراسِ فمٍ يخالُ الثّديَ بئرًا لا ينام

دلوُهُ اللحميُّ من عضّاته اللامنطقيّة

أو تراها منطقيّة

لا ينام

رجلان وامرأةٌ وآخرُ سوف يأتي

رجلان يلتفتانِ نحو الشّرق في ليلٍ بهيم

وهي التي أو مَن سيأتي يُصدرُ الصّوتَ الخفيض

من ذا تناقشُ؟

مَن يناقشُ؟

وجهُها أو وجهُه نصفٌ يعلّقهُ الظّلامُ على الجدار

نصفٌ تعلّقه إناراتُ الشّوارعِ

والعواميدُ القديمةُ

والخرافاتُ الخبيثةُ كالتّميمةِ في جدار

يتحدّثانِ ووحدَها من تستمعْ

يأتي إليها من تمنَّع أن يجيء

الأرضُ تبلغُ ساعتينِ من الوقوف

ساعتين من انتظارِ الخوفِ لا يأتي

ولكن عند موعدِه يجيء

سارَت إليه

تُرِكَتْ له

سلكَت طريقَ الواقِفَين وظلَّها

ابتلَعت نشيجَ بكاءِ طفلٍ ظنَّ ذاك الثديَّ بئرًا

والطّريقُ وقد خلت تلكَ الطّريقُ من الأزقّةِ لم تنم

تحتاجُ شيئًا

كان يصحبُها ولا يحتاجُ أن يسأل

تحتاجُ أن يبدو عليها حين لا يبدو كعادتِه القلق

تحتاجُ رعشتَها

أنوثتَها

وشيئًا من وقاحتها

وقد تحتاجُ إن وصلتْ لبسمتها

وشيئًا من نضارتِها

وما قد يُصلح الأصباغَ إذ هُتكت

وقد تحتاجُ إن عادت لمن عادت

ممطرةٌ آلامُ الليل ومقفرةٌ تلك الأنثى

أستقبلُ قدري

يلتفُّ الوهمُ كعادتهِ حولَ استقبالي للأفكار المكرورة

أشقُّ هذا الليل بمقصّ الأرق

أخيطهُ بتقلّبي

بقفزةٍ من مكاني وارتماءةٍ للخلف

ألبَسُه رغم رداءةِ الجدران من حولي

ويَلبسُني رغم رداءة حزني

ينتظرني لأنتهي من جميعِ ما يعرفُ عنّي

وأنتظرُ تلك التي تحضرُ صدفةً

وترحلُ قبل حضورها

ممطرةٌ آثامُ الليل بفجرٍ تائب

ألقُ التّسبيحِ لطاعنةٍ

خيطٌ يتسحّبُ من خُرمِ الإبرة

وشوشةُ الشّاي على النّيران

رائحةُ الخبزِ المحروقِ

حديثُ الأمسِ وما في النّفسِ على عجلٍ

والشّارعُ بالكاملِ ينحازُ لأنثى

يغتاظُ رصيفٌ من عشاق يُقتنصونَ بقلبٍ واحد

قبلاتٌ يسرقُها البعضُ هنا وهنا

وعناقاتٌ جوعى دونَ براءة

أنفاسٌ جدًّا مُحترقة

والسّادسة صباحًا تمنحُنا فيئًا من ورق التّوتِ

تمنحُنا مَن تُلغي هذا الحشدَ

وتلغيني معهم

لعلكِ هناكَ الآن

تجلسينَ مع عاشقٍ من ورق

تندفعينَ كطلقةٍ لا تعود

تشربينَ السّرابَ في عينيه

وعندما يضعُ قلمَه على أبيض قلبك تصرخين:

لستَ لها

لعلّكِ في الدّقائق الأخيرةِ من الرّحيلِ

والعودةِ

والدّقائقِ التي تنجبُ مللًا

وضجرًا في حُجراتِ القلب

حيث الابتسامةُ مدفوعةُ الجرح

والدّمعةُ مدفوعةُ الجرح

ورقصةُ البطريق فاشلةٌ فوق الخشباتِ المكسورة

لعلّكِ تتوقين للمكانِ الذي يسلّطُ عليك الأضواء

وللأبواقِ التي تتبارزُ في ضجيجها

لعلك الآن في الدّقائقِ الأخيرة من حقبةِ الغياب

ولعلّي لا أهتمُّ لعطرك

مشرشةٌ أنفاسي بما قبَضَت عليه

لا أهتمُّ بدخانك

لا أهتمُّ بانفعالك

ولا لهذه الرّسائلِ النّصيّة القصيرةِ الطّويلة

لا أهتم لقبلتكِ الميكانيكيّة

وهداياكِ الأخيرة

لا أكترثُ لمقعدِ اللقاء

وطاولةِ اللقاء

وأحاديثِ اللقاء

فأنا أريدكِ أنتِ لا سلّةً بائسةً من ذكريات.

السّادسةُ صباحًا

أنتظرُ في تراجيديا الصّدفةِ صدفةً غريبة

ولفتةً يتيمةً

تكفي لألتقيكِ

تمنحُنا ساعةً للحديث

وساعةً لفضّ النّزاعاتِ التي لم نخضها

وبعضَ الدّقائقِ التي لا تتحرّكُ من مكانها

أنتظرُ منذُ أن صارَ الانتظارُ حلًّا مفروضًا على

عتباتِ العتاب

أنتظرُ منذ أن صارت العيونُ ألسنةً لا تتقنُ المُباشرة

فزقاقُنا المُكتظُّ بِمَنْ يشبهني أمرٌ مخيف

ودروبُنا المكدّسةُ بمن ينتظرك أمرٌ مخيف

إنّها الجدرانُ فلماذا تبدو على شكل مرايا؟

وهي المفرداتُ فلماذا تحلّقُ بارتفاعٍ يناسبُ قوامَك؟

وهم الرّجالُ وقصاصو العطرِ الفريد

حين يشتمّون أقراطَك على يدي؟

أنتظرُ والعبارةُ لا تَحترِمُ القائلَ ليكرّرَ قائلُها أخرى

والصّدفة لا تنتظرُ التّفكيرَ

ولا التّأجيلَ

ولا تحترمُ الخائفَ من طيشِ الكلمات

فالحرفُ سيّدتي مخيف

عيناكِ القادرتانِ على استقطابِ من يشبهني

مِن بحَّارةِ الأحداقِ العميقةِ

أمرٌ مخيف

والهدوءُ الذي أنت فيه

البرودُ الذي أنتِ فيه

الشّرودُ الذي أنتِ فيهِ

أمرٌ مُخيف

ومعنى ألّا تكترثي لموجِ الخيالِ

ألّا تقذفي طوقَ النّجاةِ للحروفِ

أمرٌ مخيف

أنتظرُ نهايةَ هذا النّقاشِ الذي ما بدأنا بهِ

وأعلم أنّ الرّسائلَ قد لا تفي بالغرض

لكنّني كتبتها

وفي هذه الحربِ الباردة

بيني وبين من يعلّق صورتَك على حائطه

بيني وبين من ينحتُ من القصيدةِ امرأةً عاريةً

تفوقُ ما نحتُّه من نساء

بيني وبينَ من يدسّ عطرَك في مساماته

بيني وبينَ من يُخفيكِ خلفَ جدارٍ زجاجي

أنتظر في تراجيديا الصّدفةِ صدفةً تنصفني

فأنا على بُعدِ خمسٍ خطواتٍ وصدفة

ووجهُكِ المموسقُ بالحمرةِ

على بُعدِ خمسٍ ورداتٍ وصدفة

هل قرأتِ رسالتي؟

مرِضَت وشاخت دون أن تتفقّدي أحوالَها

قد قلتُ فيها: لا تكوني مثل هذا القلبِ جدًّا قاسية

فالصّدفةُ التي انتظرتها يخيفُني مجيئُها

ووحدهُ الصّقيعُ مَن يحولُ بيننا

تتجمّدُ أطرافُ الكلماتِ المثيرة

درجاتُ الشّوق تنخفض إلى ما تحت الصّفر

يلبسُ شبقُ العينين معطفَ الكسل فجأة

ويساعدُ الخوفُ على اتخاذ قرار الرّحيل

القرارُ سيّدتي بحاجة لتوقيعين

شنقُ السّطور بحاجة لتوقيعين

ولستُ صاحب القرار كي أوقّع

ولستُ صاحبَ المكانِ كي أعودَ أو أغادر

خدي نفسًا عميقا ثم قولي للمطر: كفاك إزعاجًا

للطّيور: كفاكِ ثرثرةً

للرّياح: كفاكِ اشتعالًا

قودي خيالَكِ للبحرِ الذي لا يروق لي

واسمعي لفيروزَ التي لا تطرُبني

واغضبي بعيدًا كي تنتصري على شرقيّتي الملولة

هنا... أي على طرف القرار سأنتظر

دكتاتوريتي الآن مستسلمةٌ لتشذيبِ القنوط

مخالبي لا تخرمشُ في الانتظار سواي

القلقُ يُلغي شرقيّتي فأبدو متحررا

الحزنُ الآن يعودُ كما يعود الشّعراءُ من حربِ

القصيدةِ

المغنمُ بيتُ شعرٍ

والمحرّضةُ أنثى

هل قرأتِ رسالتي؟

كنت بمفردي بعد حادثة السّقوط الأولى

والثّانية

والعاشرة

لم أداوِ من جراحي أيَّ جرحٍ في النّزيف

إني نزفتُ على ثيابِ الصّبر مرّاتٍ كثيرة

كنتُ كفًّا تعجُنُ الشّعرَ الذي

يبدو رغيفًا للجياع العاشقين

ما لوّث الأغرابُ قلبي

ثم جاء العشقُ يعلن عن وباءٍ

قد يميتُ الصّادقين

هل قرأتِ رسالتي؟

إني خلطت الشّعرَ فيها مع بقاياي الحزينة

أنتِ مثلي

لم أعاتب

بل ذكرتُ الصّدفةَ الأولى

فهذا ديدن الضّعفاء دومًا

يذكرون الصّدفَةَ الأولى ويخشونَ الأخيرة

هل قرأتِ؟

لم أقل شيئًا عظيمًا

تُرَّهاتٌ

بعضُ حزمٍ زائفٍ

بعضُ نزفٍ دافئٍ

ذِكرُ الصّقيع وما يكون من الصّقيع

حتى وصلتُ إلى النّهاية

قلت فيها: لا تكوني مثلَ هذا القلب جدًّا قاسية

أنتِ القادمةُ إلى هذا الإنسانِ المُتعبِ

والرّاحلةُ سريعًا فور نفادِ اللحظات الممنوحةِ لي

واللحظة أكبر منّي

أقتربُ كنايٍّ خاطبَ لحنًا لا يتّسعُ لموّالِه

لا يتّسعُ لحجمِ النغمِ المَهدورِ تباعًا

صوتُك لا يُسمِعُ حرفي وقعَ خطاهُ المذعورةِ

من خافَ الآخر؟

لا يعنيني دمثُ أفكّر أن أقتلَ ما خَلف الشّاعر

إنساني لا يصلحُ للعيش بهذا الوقت الفاشستي

الطّفلُ العابثُ في سريّة هذا القلب قديمًا شاخ

اللحظة أكبرُ منّي

وأنا أصغر من هذا الطّيش اللاهث خلفي

يا سيّدتي... لا أتجرّأ أن أعشقَ ما يعشقُه النّاس

لا أتجرّأ أن أعشقَ نهدًا محفوفًا باللذةِ والنّار

خصرًا يهتزُّ فتهتزُّ الأشعارُ لأجله

لا أتجرأ أن أبدو مِصباحًا يشتعلُ بزيتِ الأشواق

لا أتجرأ يا سيّدتي

لا أتجرأ... فالحب مخيف.

السّادسةُ صباحًا

لم يستَرحْ

وجدوهُ في حقلِ الأرزِّ

يقيمُ مأدبةً لدودِ الأرضِ

يدعوها: غداءَ الكادحين

لمَّا غدا فزَّاعةً ضحكوا عليه

لمَّا تعمَّدَ بالنّدى رجموهُ وانهالوا عليه

ولأنّه يبكي كما نبكي تمنَّعَ بالبكاء

ولأنّه نسيَ ابتسامتَه استراحَ

وقامَ في دمِنا المهرّجُ كي يُمَثِّلَ دورَه

صرخوا جميعًا

صفّقوا

لم يكترث

وجدوه يصطادُ الحصى

فبنوا عليه من الحصى هرمًا يُطِلُّ على العَدم

لم يسترح

عرضوا عليه الصّلحَ... باعَ صكوكَهم

وجدوه في الصّحراء يصنعُ بابَه

سألوه

أغلقَ بابَه ومضى ليتركَهم لَهُم

أيُّ الدّروبِ تريدُ هذا الوجهَ أن يمضي بها؟

لمَّا تساءلَ راح يشتمُ نفسَه

عضَّت أصابعُه على فمِه ونام

في الليل أوقدَ ثلجةً

ورمى حديثَ النّفسِ كي يهبَ الفراغَ لسانَه

وجدوه فابتاعوه عبدًا

عندما جاعوا استساغوا لحمَه

رشُّوا عليه الملحَ

رشّوا شعرَهُ

وطهوهُ في قِدر الحساءِ وعندما

مضغوهُ عاتبَهم

وسافرَ من جديد

لم يسترح

يصطادُ ضفدعةً

يقول لها: اكتبي

عن يوم مولدهِ يقول لها الكثير

عن آخر السّفنِ التي احترقَت يقولُ لها الكثير

عن طفلةٍ تدعى "جريرة"

مَن جريرة؟

ليس يعرفُ مَن تكونُ

ورغم ذلك راحَ يهرفُ بالكثير

وجدوه فاغتمّوا

دعوه لكي يقول

كتبوا الذي لم يسمعوهُ

وردَّدوا ما لم يقلهُ

وراحَ من بين الحضورِ

يرى الشّخوصَ الـ لم يقابلها

تحيكُ لهُ

وعنهُ الدّورَ في النّصّ الأخير

لم يسترح

لكنّه بجراحهِ يأبى التكسّرَ والكسور.

السّادسةُ صباحًا

سأمسكُ يديكِ وأستشعرُ الدّفءَ قليلًا

باردةٌ عروقُ يدي

لا لونَ لحمرةِ ما أتكوّنُ منه

إنِّي منفاي

قد أبدو أبعدَ مما أتصوّرُ في قربي منّي

وأكونُ الأقربَ رغمَ الهجرة عنّي

وندورُ معًا

ونُجنُّ معًا

ونعاتبُ خشبَ المسرحِ إن تعِبَت أقدامُ اللهفةِ فينا

ونعاتبُ ضوءَ الشّارعِ إن شاهدَ قبلةَ عاشقةٍ لجبينٍ

عاشق

ها نحن ندورُ ونأتلفُ

نأتلفُ أمامَ خضوعِ الرّقصةِ للرّيحْ

أمامَ خطيئتنا الأولى

فالريحُ وحدها من تحملُ القصائد

والرّقصةُ ال تجيءُ دونَ موعدٍ تجيءُ في موعدها

فاللجوءُ يا حبيبي للرّقصِ حالةُ انفصام

وحالةُ انقسام

ووصفةٌ للنّوم والشّرود في الدّروبِ الحالمة

الدّورانُ في الدّاخلِ

والدّورانُ حولَ الدّاخلِ

والرّقصةُ الجامدةُ جنونٌ لذيذ

وحينها فقط

أو حينَ لا أكونُني لأنك معي فقط

سألتقطُ اللمحةَ من نظرةٍ جانبيّة

قد تسقطُ النظراتُ

قد تتدحرجُ على يدي

قد تنزلقُ الكلماتُ على صدري

قد أشكِّلُ قصيدةً على شكلِ طائر

قد يحدثُ أيٌّ شيء إن خرجنا مرّةً منَّا

إن غادرنا ذواتِنا من دون أن نسافر

وحينها فقط

وحين لا أكونني لأنكِ معي فقط

سأمسكهما كقيثارةٍ دوزنَ إيقاعَها المستحيل

سأترك النّبرة الصّوفيةَ تمارس بعضَ الطّقوس أمام

المحال

وحين ندور

وحين تدور

وسمعي يلاحقُ ما سوف يأكله من مفردات

وما سوف يشربُه من نوتةِ البُحّةِ الدّافئة

سأحتار أين أضعتُ صوتي

وأين وضعتُ قبيل لقائك كفّي

وأين ذهبتُ بعيدًا ولا زلتُ واقفًا في جنباتِ المكان

لديك أنا لا محالة

لديكِ الكثيرُ من الرّيح تحت الجدائل

لديك الكثيرُ من الموج تحتَ العيون الصّغيرة

لديك الكثيرُ من القصيدة

قوامُها

خصرُها

ضحكاتُها الرّقيقةُ المثيرة

وماذا لديّ؟

وماذا لدي سوى الحُلمِ بتشكيلِ قصيدةٍ على شكل

طائر؟

وحينها فقط

وحين لا أكونني لأنّك معي فقط

أثورُ بانتظاري

أو علّني كرهتُ الانتظارَ أكثر في قاعة المسافة

فدرسُك الموسيقيّ يبدأ بعد قليل

صوتكُ المُنجِبُ للنّغمِ سيلدُ ذاتَه بعد قليل

حنجُرتي قد تنفجرُ بالنّداء عليك بعد قليل

لا أريد النّظر من بعيد

لا أريد التّلصّص على جسد يستحمُّ بضوء القمر

المقعدُ الأوّل في مسرح عينيك بانتظاري

والمقعد الأخير

وحينها فقط

وحين لا أكونُني لأنّك معي فقط

لن أهتف مصفّقًا

لن أقفَ مندهشًا كلّما باغتِّنِي بدورانك الدّاخلي

سأحتمل الصّدمةَ إن قفزتِ بليونةٍ للأمام

وأعدُك ألّا أتكوّرَ على نفسي

وأغمضَ عينيَّ خشيةَ سقوطِك

قد أحملكُ فقط

قد أحلّق مثلك في مكاني

قد أعانقك فقط

قد أرحل معك حينما تسرين وحيدةً إليك

وحينها فقط

وحين لا أكونني لأنّك معي فقط

لن تُكسري كوردةٍ فوق غصن روحي في الغضب

مثلُك لا يُكسر

الدّمعةُ والقبلةُ والحيرةُ أشياءٌ لا تُكسر

الصّدفة والضّحكة والرّقةُ لا تُكسر

الوردةُ إن غضبت قد تتناثرُ ثم تعودُ بثورتِها

كي لا تُكسر

فامزجي دمَك الحزينَ بدم القصيدة

ثوري على الحزن بعطرِك

على الضّجيجِ الملوثِ بالقهرِ بصوتك

فلديك الكثيرُ من القصيدة

نقاؤُها

حدّتُها

دمعاتُها البريئةُ الخطيرة

وماذا لديّ؟

وماذا لديَّ سوى الحلم بتشكيل قصيدةٍ على شكل

طائر؟

إنّها السّادسةُ ولا زالت عيناك تفترشان الليلَ

ولا زال الحزنُ يجلّلُ تلك الجوهرتين

ولا زلتُ أشكّلُ من ملامحكِ قصيدةً طائرةً

تصلحُ للغوصِ

وللسّيرِ على الصّحراء

وتصلح حينما ندورُ أن تدورَ يا حبيبتي

أن تدور.

السّادسةُ صباحًا

كوني ليَ الأنثى الأهم

كوني انصهارَ الأُخرياتِ بواحدة

كوني لي الرّقمَ الأخيرَ

فكلٌّ أنثى قد تكونُ الخاتمة

شرقيّةُ الفِكرِ التي أحيا بها

تعوي كذئبٍ

فوق تلّ من إناثْ

شرقيّتي الصّحراءُ في زمنِ الجفافْ

كوني لي الأنثى التي

تأتي على طَرَفِ الأصابعِ مرّتين

تأتي كصيفٍ ماطرٍ في موسمين

تـأتي لتبعثَ _في قبيلةِ آكلي لحم القتيلة

حينما تأتي_ الحضارة

إنّني في الكهفِ

آلاتي وأقلامي وأوراقي وأبواقي الحجارة

إنّني ما قبلُ عصرِ النّهد

ما قبلُ انتقال الشّعرِ للنّيران من إثْر الشّرارة

فلتكوني كالحقيقةِ في اصطناعات العبارة

سأبدو غريبا... نعم سوف أبدو

وأبدو وحيدًا... نعم سوف أبدو

فهل تجلسين؟

فهل تجلسين قليلا أمامي؟

سأكتبُ سطرًا من الماء لا تشربُه الأزمنة

سأرسمُ فوق الرّمال السّنابكَ والأحصنة

ذريني أخفّف عنك الجدائل

وأمسح سرّا دموعَ الرّسائل

فإني بسيط إذا ما جلستِ

وأحلامُ عمري كيومي بسيطة

وأفكارُ شعري كليلي عتيقة

لقد قال إبليسُ لي ساخرًا: ملاكي الملاك

فما كنتُ ممن يفكّرُ يومًا بخلفِ الثّياب

ولم أرتوِ كي يكونَ العطش

أنا في الحيادِ وفي المنتصف

فهل تجلسين؟

أنا كنتُ في صومعاتِ العرب

أراهن أن يستبيحَ الجمالَ دهاءُ العرب

وها أنت مِثلُ النّخيلِ الوحيدِ

على ضفّتين خلَت من نخيل

وها أنتِ تائهةٌ كالغيومِ التي في السّماءِ

أرادت سبيل

لذا قد بدوتِ المساءَ الوحيدَ بهذا المساء

ففي هذه الأرضِ... أرضِ العروبةِ

ضاعَ الرّجالُ

وضاعَت نساء

فهل تجلسينَ؟

ككلّ القصائدِ حين المخاض؟

ضعي قدمًا فوق أخرى

وذوبي على لوحةٍ من سراب

غفَت هذه الأرضُ عنّا

ونحن نمارسُ نشرَ السّحابِ وطيَّ السّحاب

ونحن نحاولُ سحبَ المقاعد والطّاولة

وتضييقَ هذا الفراغ القريبِ من النّافذة

فهل تجلسين على مقعدٍ قربَ هذي القصيدة؟

فإني صنعتُ لأجل اللقاءِ القصيرِ

من الحرفِ _سيّدتي_ طاولة

وصمّمت من لهفتي مَقعَدين

فهل تجلسين أمامي قليلًا؟

لوقتٍ طويل... قصيرٍ

لبعض الثّواني... أمامي

ولو لحظتين.

السّادسةُ صباحًا

أبدو كجدِّي

حينما أبدو جريحًا

أو كسيرًا

أو غريبًا

أو حزينْ

أبدو كئيبًا مثلَ وجهِ اللاجئِ المغبّر

مِن رملِ السّنينْ

تتشابهُ الأحداقُ حتّى أنّها

وَرثِتْ مع الجيناتِ بؤسَ البائسين

أبدو كجدّي

حينما يبدو وحيدًا في تعاريجِ الكهولة

حينما كانت تعاويذُ الشّقاء به الرّجولة

والحزنُ مَن منحَ النّزوحَ على الخرائطِ دورَه

والحزنُ مَن رسمَ الخطوطَ

ومَن أمالَ خيامَنا

والحزنُ من كتبَ النّصوصَ

ومن أضافَ

ومن أرادَ لنا البطولة

وأريدُ أن أحيا وحيدًا

دونَ وجهي واشتعالِ الشّيبِ في شَعر القصيدة

دون أن يأتي المساءُ كزائرٍ أو قاتلٍ

من دون أن يسطو ويغنمَ _في منازلةٍ_ أمامي

قبل أن يجثو فيلتهمَ العشاء على عظامي

ثم يشربُ خمرَهُ

ويقشّرُ اللبَّ المحمصَّ بين طيّات الجريدة

وأريدُ أن أحيا وحيدًا

دونَ أن تأتي التّعاسةُ كلَّ يومٍ للفِراش

تأتي بعاشقِها الكئيبِ أكولةً كالنّارِ أجنحةَ الفَراش

وعلى فراشي يستحيلُ القهرُ عزفًا للبكاء

وتريدُ منّي أن أكونَ عشيقَها

وتريدُ أن تغدو الوحيدةَ في النّساء

وأنا الذي ما خنتُها

ما خانَها جدّي ولا حتى أبي

أيخونُ عاشقةً _وقد وفَت_ الشّقاء.

السّادسةُ صباحًا

الشّامُ هنا فاخلع نعليك

ستسيرُ على جثثِ الأحجارِ

وقبرِ الأغصان المكسورة

ستسيرُ على رممِ الأشعارِ

ودمعِ الأبياتِ المهجورة

ستمرُّ على أدمغةِ الشّعرِ

وقد بنَت القَمحةَ فالقمحة

قد غَنَّتْ... بُحتُها البُحّة

ستمرّ فلن تسألَ طللًا

إلا وأشارَ إلى الأعلى

الشّعرُ هنا ينزفُ ماغوطًا

والفرَّا قد باعَ الدّنيا يومَ الأحزابْ

لن تجدَ الخيلَ

ولا ميسونَ

ولن تجدَ بعينِ الشّاميَّات هنا الأهدابْ

لن تجدَ الكأسَ

ولا السّمَّار

ولا الأكوابْ

الهالُ تشرَّدَ

والقهوةُ أهمَلت اللحنَ الفيروزيّ

ونزارٌ فارقَ بَلقيس

ولم ينشر ديوانًا آخر

يا وطنَ الشّعرِ ألا يوجدُ من يسمعُ شعري؟

الشّام هنا فاخلع نعليك

الخبرُ الأوّلُ: عن مجزرةِ اللوزِ

ووجهٍ قد شوّهه الصّبر

الخبر الثّاني: عن قيسٍ قد حرّفَ آخرَ ما قالت ليلى

والثّالثُ: عن جسدٍ يصرخُ: فليحيا وطني

ويسودُ الصّمت

والرّابعُ: أن دمشقَ

وحاراتٍ في قلبِ دمشقَ

ونايات في صوت دمشقَ

وليلات في ثوبِ دمشقَ

رجالات في دمع دمشقَ

تقول: دمشق

الشّام هنا فاخلع نعليك

الطّفلةُ صاحبةُ القرط الأحمر سوريّة

والقاتلُ يضعُ ببيتِ النّارِ

وفي «باغةِ فردٍ» طَلْقةَ حريّة

يضعُ القريةَ فالقرية

يستخلص شبرًا بعد الحرقِ ليحرقَ آخر

يستخلصُ غصنًا بعد ذبولِ الغصنِ ليقطعَ آخر

يستخلصُ قلبًا من مخلبِ من طعنوا النّاسَ

ليطعنَ آخر

ينتشلُ الغرقى

ثم الغرقى

كي يُغرقَ في بَرَدى الماء

كي يشطبَ شهرًا عاشوريًّا

من روزناماتِ الإفتاء

والنّاسُ مع الحقِّ وإن كانَ مع الحقِّ الباطل

والباطلُ يستجدي الحقَّ

بأن يبدو حقًا في الباطل

والنّاسُ مع الذّاهبِ

والقادمِ

والعائدِ من صدرِ الإسلام

ومَن كفرَ بكلِّ الأديانِ

فقد تاهُ الإنسانُ

وتاهت صاحبةُ القرط

وتاه النّهرُ

وقد تاهت في دربِ العودة سوريّا

فهل تنجبُ فُوهةُ المدفعِ للطّفلةِ يومًا حريّة؟

من جاءَ لينقذَها؟

قال الموتُ: الموت

كُسرَ من الإشفاق الصّمت

البطلُ هو السّارقُ

والحارقُ

والمحتل

حريّةُ تلك الأقراط بدَت في القتل

نحنحةُ الأصواتِ على الآذانِ

كطلقةِ موت

والقاتلُ من جاءَ ليمنحَ هذا القلبَ المنكسرَ

جبيرةَ عدل

الظلمُ وعصرُ الأنفسِ في معصرةِ الحربِ نجاة

العودة للنّار وقاعِ جهنّمَ وطنٌ آمن

الماضي يبعثُ شجنًا محترقَ الأنّات

والطفلة تحلمُ في سجنٍ

يَحميها من بطشِ الدّخلاء

تطلبُ سجّانًا يحترمُ حقوقَ الدّميةِ في يدها

يحترمُ نشيجَ النّدبةِ في قرطٍ مزّقَ مَسمعَها

الطّفلةُ تحلمُ في سقفٍ

يحجبُ ما شاء من الأشياء

يحجبُ إن شاء الفجرَ

ويحجبُ ما قد شاء البدرَ

ويحجبُ إذ يحجبُ عالمَها

لكن لا يحجبُ سوريّا.

السّادسةُ صباحًا

لم أنكسر كالغصنِ في انكساره

قد قاومَ العذاب

لم أنكسر والغصنُ كان يابسًا

وطقطَقت ضلوعَه مخالبُ الغراب

بل ريشةٌ تدور في الفراغِ

قبل أن تدورَ في زوابع اليباب

بل غُصّةٌ تجيء في مراكبٍ محطمّة

وأشرعٍ ممزقّة

كأنّها تضيقُ من لواعجي

فتسكنُ الهِداب

لم أنكسر لأنّني مكسّرٌ

مفتفتٌ.. مشقشقٌ كموطني

والشّام يا صديقتي

لم تمنح التّرابَ أيَّ زهرةٍ في ساحةِ الخراب

لم تقنع الفراشَ أن يلملمَ البكاءَ ذات دمعةٍ

ويطرحَ العتاب

الشّامُ في سريرها تئِنُ إثرَ طعنةٍ

وطعنةٍ

وطعنةٍ

وحولَها الذّئاب

قد قصقصوا ضفائرًا

قد قصقصوا من شعرها جدائلَ السّحاب

قد أتلفوا السّوادَ في خَصائلٍ يبُلُّها العُباب

لأنّ في انسيابِ شعرها الثّوابَ والعقاب

لأنّ في انزياحِ شعرها الضّلالَ والصّواب

لأنّ في امتدادِ شعرها

حكايةَ السّهولِ

والكرومِ

والبيوتِ

والدّروبِ

والهضاب

الشّامُ في الشّروقِ يا صديقتي كالشّام في الضّباب

والشّامُ في حقيقةٍ كالشّام في السراب

والياسمينُ... الياسمينُ... الياسمينُ صديقتي

الياسمينُ... وألفُ سيفٍ في الرّقاب

والياسمينُ... الياسمينُ... الياسمينُ صديقتي

الياسمينُ وكيف ضيَّعهُ الكلامُ؟

وكيف تاهَ من الخطاب؟

والياسمين... الياسمين... الياسمين صديقتي

الياسمين وليسَ في الذّكرى جواب

الشّامُ يا صديقتي رسالةٌ من عاشقٍ لعاشقة

تقابلا... تعانقا

تشرَّبا نبيذَها

فكانت الكؤوسُ والشّراب

وكانت الأناملُ ال تدسّ وردتين في كتاب

خجولة... ومؤلمة

ولحظة افتراق

ومشهدٌ لا يصرخُ الموجوعُ فيه: أن توقّفوا

لا تصرخُ الدّماءُ فيه: أن توقفوا

لا يصرخُ الصّراخُ فيه: أن توقفوا

لا تصرخُ الدّروبُ فيه: أن توقفوا

وتصرخُ الشّعاب

فكيف يا صديقتي نسيرُ في مدينةٍ

تعجُّ بالغياب؟

وأين ناسكاتُها؟

وأين بيضاواتُها الحسانُ والكعاب؟

وهل لنا من حجرةٍ في بيتها العتيقِ ذاتَ آب؟

الشّامُ يا صديقتي لا تنتمي لنفسها

فكيف للتّرابِ أن يحاربَ التّراب؟

وكيف للشّفاه أن تخاصمَ الرّضاب؟

وكيف للهدوءِ أن يقاتلَ الهدوءَ في ضجيجه؟

وكيف للقصيدِ أن يسيرَ في حروفهِ

مُخلِّفًا ميسونَ من ورائهِ

وتاركًا رباب؟

فالشّامُ في الشّروقِ يا صديقتي

كالشام في الضّباب

والشّامُ في حقيقةٍ... كالشّامِ في السّراب.

.

السّادسةُ صباحًا

مستطيلٌ أيها القلبُ المدوّرُ مستطيلْ

مستطيلٌ وجهُ من أحببتَ سرّا

في خريف الأربعين

مستطيلٌ منذ أن حاولتَ قسرًا

أن تكونَ المستطيلْ

حين قال الكلُّ: كلا

قلتَ: كلا

ألفُ كلا

ثم باتت كلُّ كلا ترتضي الوجهَ البديل

مستطيلٌ شسعُ نعلِ الواقفين على الحياد

لا ناقةً كانت لهم

لا ذنبَ يعرفهُ الفتى

وبنو ضُبَيعةَ قرّبَت تلك النّعامةَ «للعُباد»

هل كلّمَتهُ الأرضُ؟

قالوا: كلّمَت

هل حدّثتهُ؟

نعم... وربّي حدّثت

ما كان شكلُ القبر؟

قالوا: مستطيل

مستطيلٌ جرحُكَ المنسوبُ للأشباحِ في ذيل الزّمن

قهرٌ تكرّرَ في شطورِ الهاربين من الفتن

قد قالها والحربُ ألقت حَملَها «في يومِ تَحلاقِ اللِّمم»

هل أنجبتهُ وحائلٌ؟

قالوا: وربّي أنجَبت

ما كان شكلُ القبرِ

قالوا: مستطيل

مستطيلٌ لحنُ مَن مرّوا إليها

لحنُ من عادوا إليها

لحنُ مَن ضلّوا وغابوا في زحامِ المستحيل

مستطيلُ وجهُكَ المائيْ... على شطّ الخيانةِ

والنّداءُ على السّرابِ

على اليبابِ... على الجوابِ

على قَرارِ الصّوتِ إذ خلَّى مكانَه

كلُّ شيءٍ يا صديقي مستطيل

فالشّعورُ على الدّفاترِ والمنافي مستطيل

والمربّعُ مُستطيل

والمثلّثُ مُستطيل

كلُّ شيءٍ

كلُّ شيءٍ

غيرَ هذا المستطيل.

السّادسةُ صباحا

مزدحمٌ بكِ

فوضاي ترفضها الرّتابةُ والأناة

متناقضٌ وجعُ احتياجي للبقاءِ وللرّحيل

وململمٌ نزفي العميقَ ليستحيلَ قصائدًا

والشّعرُ قهرًا يستحيل

متناقضٌ بعد احتمالي للخريفِ

وكيف حدّثني طويلًا

كيف جالسني طويلًا

كان ضيفًا صادقًا لكن ثقيلًا

لا يميلُ مع الرّياح وينحني

والحزنُ أثبتُ فوق غصنِ الرّوح من عشَّ البكاءِ

ومن حقيقات الطّغاة فلا يميل

ضدَّانِ يَنثنِيانِ في جسدي النّحيل

يتشابكانِ تشابكَ الأغصانِ

في عمقي ومن حولي ومن منّي

وفي أعلاي أو تحتي

وكنّا نعرفُ الأسرارَ أحيانا وتعرفُنا

ونعرفُ وجهةَ الأحزان والأحزانُ تعرفنا

فإذ بالشّمس مظلمةٌ

ووحدي من أريد الشّمسَ

أدعوها بأن تمطر

وأدعوها بأن تأتي

ولو في غيمةٍ حُبلى لتنجبني إلى حتفي

لكي يتخاصمَ الضّدان مع ضدّيك في الموتِ

وكي نحيا ولو حينًا بوقتينا

فيبدو وقتَك وقتي

متوجسٌ أخشى صكوكَ العفو

من كفّ الحضّارة

متوجسٌ أخشى على الآلام من فضّ البَكارة

حين أُمسي دون موتٍ أو حياة

حينَ يبدو النّهدُ مختالًا

وتختالُ الأيائل

والأناملُ حين تبدو مُوجعاتٍ للأنامل

والحصادُ يكون للحصَّادِ لا عودِ السّنابل

حينَ لا أبقى وحيدًا في مكاني

حين ألقاني وحيدًا في مكاني

غيرَ أنّي في اعتكافي

لا يصاحبُني سواي

وليس يعرفُني سواي

فمن نكونُ؟

ومن نريدُ؟

ومن نصالحُ أو نقاتل؟

كيفَ أنت؟

كيفَ قلبي في جوارك؟

هل نما حزنُ القصيدِ على ضفافِه؟

هل تكوَّر كالأليفِ على ذراعِك؟

هل تشاقى؟... هل تغابى؟

إنّه القلبُ الذي فوق احتمالي

هل غدا فوق احتمالك؟

هل تمارضَ كي يُعادَ من الزّهور

من الفراشِ

وَأنَّ مرّاتٍ ومراتٍ لينعمَ باحتضانك

هل تنسّكَ؟!

أم تزندقَ!!

هل تكاثرَ؟

هل تضاءلَ؟

هل تمايلَ؟

هل تطاولَ؟

كيف قلبي في جوارك؟

هل غدا كهلًا وشيخًا

هل غزاه الشّيبُ ليلًا

هل تخضَّبَ حينما أبكاكِ حزنًا من بكائك

مزدحمٌ بكِ

متكدّسٌ عمقي بذاتك

منطوٍ حدَّ التّوحّد

حين أسمو نحو كنهِ العشقِ منغلقًا

وسرّ يفتحُ الأبوابَ

سرّ يغلقُ الأبوابَ

سرٌّ لارتقاءِ النّبضِ في ذاتي وذاتك

كيف قلبي في جوارك؟

مستريحٌ؟... أم غريبٌ؟

هل يُشاغب؟

هل سينجحُ باختبارك؟

كيف قلبي في جوارِك؟

كانَ يومًا يأكلُ العصفورَ حيًّا

كان مفترسًا شقيًّا

يلبسُ الأزهارَ درعًا كي يحارب

يشربُ الأشعارَ صرفًا كي يعاتب

كانَ في تقواهُ في كلِّ المواعظِ

بين مضطربٍ وتائه

فلنَعدْ من حيث جئنا

كيف قلبي في جوارك؟

السّادسةُ صباحًا

الأرضُ قاحلةٌ

وصدري

والمصيرُ هو المَصير

والرّيحُ تنثرُنا وتشنُقُنا بذورًا

ثم تلتهمُ الصّفير

الوقتُ قحطٌ

جائرٌ هذا المساءُ على الوجوهِ المُتعباتِ

وخادعٌ

مُستَنزَفٌ ألقُ الصّباحِ

وقد تآكلت القلوبُ من القلوبِ القاسياتِ لدى الهجير

والعشقُ أقبلَ وانتهى

وأنا وأنتِ وما تحطَّمَ بيننا

ذكرى تُثارُ ولا تُثير

الجبنُ أن نبقى طيورًا

لا يريدُ لها الزّجاجُ ال ليسَ يحميها

مِن الحرِّ المُمَزِّق أن تطير

ونؤوّلُ الكابوسَ فيما بيننا

قد كان حُلْمًا... لم يكن

هو دورُنا من مِشهدٍ مستقطعٍ

وحُطامُنا في آخر الأحداثِ... في الفصلِ الأخير

ماذا هناك؟

تكلّمي

لم تستمع كي تستدير

ومضَت لأمضي خلفَها

جسدين شلَّهمَا الزّفير

ومَشت أصيحُ وراءها

هلّا انتظرتِ... تريثي

هلّا التفتِّ... لتعرفي

لم تستمعْ... كي تستدير

فجئَت خطايَ كما جئت فوضاي بين الكبرياءِ

وتشابَهت نعمي بقبوِ عزيمتي مع لائي

وتشابهَ السّجَّانُ مع سجنٍ يصفِّدهُ الأسير

تتهكّمينَ على انطفائي؟

والبداياتُ الأخيرةُ لم تكن في صالحي؟!

أنا حالتانِ تودُّ كلٌّ منهما أن تستجيرَ بكِ

ومنكِ تستجير

ألمانِ يقتتلانِ عند تعرضي للنّفيِ منكِ

عند تعرّضي للطّفِ منكِ

حينَ إصبَعُكِ على جسدي يخدّرني

على جسدي.. يعطّل فيَّ مِنسأةَ الضّمير

هي نزوةُ الأحداقِ تمسكُ مِنجلًا

لتجزَّ أبرأَ ما عَنَت نظراتي

يدكِ الكمانُ ووجهُكِ قيثارتي

ولديكِ ما أرجوهُ من آلاتِ

لكنَّ جوقتَنا يُسيِّجُها الفِراقُ فلن تفيدَ المُشجياتُ

ولن تَضير

ونما السّياجُ وقد تناسى أن للمشتاق قلبًا

مثلما يومًا تناسَت في تعافيها جراحَه

وخُذِلتَ!

مُنعطفاتُ كائنِكَ الغريبِ تصبُّ شرقَكَ في الطريقِ
لتحتوي عبثًا صباحَه

فيهزُّكَ اللاوعيُّ فيكَ ويفتديكَ من الذي

طعنَ المُقاوِمَ فيكَ تَكرارا

وقد أبدى انشراحَه

مَن يرتديني الآن؟

عصريّةٌ هذي النّدوبُ ال ترتديني والشّحوب

مُصغٍ إلى رأسي الحليقِ وما تجشّأَ من لُغُوب

مصغٍ إليهِ وقد غدت كدَمَاتُ رقبتهِ وشاحَه

وهمستُ: هل مرّت؟

أجبني... لم يُجبْ

كلُّ المقاعدِ قد تجيبُ

وقد تنوحُ من السّؤال

وأقولُ فيكَ فلا يُغيظكَ ما يُقال

ترَكَت هنا يومًا

عليكَ من الكثيرِ بعطرها... ذاك الكثير

تركتكَ جِدًّا مُتعبًا

تركتكَ مهزومًا فهل

مثلي تعبتَ من المسير؟

السّادسةُ صباحًا

نـهدانِ شاميانِ مُرتاحانِ من وزر الخطيئة

نـهدان يفترشانِ صدرًا من رخام

يتدرّبان على اقتناصِ المفرداتِ من الشّفاهِ الغازيات

يتقاتلانِ على السّيادة

يتسابقانِ على اكتشافِ النّظرةِ الحمراء في سُحبِ

العيون

حرّاسُ هذا الصّدرِ محترفو خيانة

زرّ القميص يريد محوَ الخطِّ بين النّاهدين

عبثًا يحاول لثمَ سهلٍ ممتنع

عبثًا يغازلُ في الخفاء بجملتين

عبثًا يحاول صيدَ هذا السّحر في نصب الفخاخِ

بحيلتين

يحتلّني شبقُ الرّجولةِ إذ يعودُ الكهفُ جزءًا

من طقوسِ العشقِ في زَفَراتِ إنساني القديم

وأجيءُ من أجل ابتعاثي مِن أنينِ الشّرقِ فوق

الراحتين

تتحرّرين من الرّتابةِ

والحساباتِ الصّغيرةِ

واحترامِ الفكرِ في دحضِ الطّقوس

تستحضرين الشّكَّ مثل مشعوذٍ

تتصنّعين العمقَ طردًا للعبث

تتفلتينَ تفلّتَ الأطفالِ من عبءِ الدّروس

نهدان شاميان قد ناما... وقد صحوا

وقد ذبَحا... وقد ذُبحا

نهدان يترجفان من طيشِ التّحرّر كالسنونو في

الصّقيع

يتوتّران إن اقتربتُ

وإن نظرتُ فيقفزانِ كأرنبين إلى الوراء

يتلصّصان على نقاشٍ كان محتدًما

أنا طرفاهُ دومًا في الخفاء

يتهامسان ويكذبان ويضحكان ويبكيان

ولستُ أدري مَن أشادَ بما افترستُ

ومنهما مَن ذا أساء!

السّادسةُ صباحًا

هل تسافرينَ معي إلى المرّيخ؟

حيثُ لا تكونُ الأرضُ البريئةُ منّا

جزءًا من زوايانا المُظلمة

حيثُ لا تكونُ البديهيّاتُ مُعادلةً سُفسطائيّة

حيثُ لا تكونُ رؤوسُنَا في مطبخِ الخطباءِ أوعيةً

نحاسيّة

هل تسافرين؟

فالاعتذاراتُ التي تقدِّمها الفأسُ للأشجار تغضبُني

البراهينُ التي يسوقُها الشّاطئُ للبَحَّار كيلا يمضي..

لا تقنعُني

الحضاراتُ التي تستهلكُ الإنسانَ من داخلهِ تنهشُني

فامضِ معي حيث تكونُ أنباءُ الصّباحِ آخرَ ما يشغلُنا

وإحساسُنا المشوَّهُ آخرَ ما نحملُهُ معنا

مُبتَلَعٌ أنا ممّن يهبطونَ علينا تِباعًا مِن ناطحاتِ

السّحاب

مُقرمشةٌ أنتِ... مُشفَّيةٌ من اللحمِ

أنتِ في ذُروةِ التّاريخِ سيّدتي

ومثلي... مثلُ مَن يحيونَ خارجهَ بلا وقتِ

ومثلي في الهوامشِ والحواشي تسكنينَ

ولن تسيري طالما لا زلتِ حائرةً على السّطرِ

هل تسافرينَ معي إلى المرّيخ؟

يقولون: لا نعَراتٌ هناك

ولا يحملُ الفردُ بين القبائلِ عارَ القبيلة

وسيفَ القبيلة

وإنّ الحصانَ الذي يشتريهِ

حصانٌ بلا لقبٍ أو عشيرة

سأرخي العمامةَ عند الذّهاب

وألقي كما قيل لي جانبًا بذلتي

سأترك خلفي طُمأنينةَ الواعظينَ

حديثَ العجائزِ لمّا يصفنَ الجدارَ

ودربًا يحاذي عيونَ الجدارِ لنحتاطَ فيه

ألم تُدركي بعدُ أن الخلاصَ من اليومِ فينا غدٌ قد يليه؟

هل تسافرينَ معي إلى المرّيخ؟

السّادسةُ صباحًا

أحببتُ فيكَ هُدوءَ وَجهِكَ

قبلَ أن تفترَّ عن هذا الهدوءِ العاصفة

وأحبّ جوهرَك الذي

يُقصي التّردّدَ داخلي

فأكادُ مِن فَرطِ التَّحَوُلِ أنفَطر

أو أنتَقِلْ

من طفلةٍ في الأربعينَ

إلى قَنابِلَ ناسِفة

هذا هو الحُبُّ الذي لقّنتَني

وهو الذي أرضاهُ يَومَ سَكَنتَني

عُذرًا لألفِ إجابةٍ أخفَيتُها

فأنا بِمقتَبَلِ الهَوى

أُخفي عروقي الرَّاجِفة

لن تَنتَظِر

فالعاشقاتُ يردنَ معرفةَ القليلِ عن المسافرِ

أينَ كانَ

وكيفَ كانَ

وكيفَ جاءَ من السّفر؟

والعاشقاتُ وأنتَ تدري

لا يصفنَ يقينَهنَّ بلا حذر

لن تَنتَظِر... فأنا بِنفسي عَارِفة.

السّادسةُ صباحًا

أُعفيكِ من هذا الصّباحِ

ومِن حديثي

مِن فراغٍ كنت أشغَلهُ لأجلكِ بالفراغِ

كم غريبٌ أن يفيضَ الوقتُ فينا

أن يُحاكِمَ تكّةَ السّاعاتِ عَن دورانها

عن بطئِها... بقضاء باغِ

أعفيكِ إذ أحبو لوقتٍ آخرٍ

لا دفءَ فيه

حجارةٌ سُكّانُه

لا سرَّ فيه

فكلُّنا أمواتُهُ

لا وعدَ بين العاشقينَ وموعدٌ

إلا وندركُ

والمقاهي مثلُنا

تدري بأنّ وعودَنا من لاغِ.

السّادسةُ صباحًا...

طارقْ

أسمَتني عائلتي طارق

وقبيلتنا تُدعى طارق

والشّارعُ يحملُ لافتةً لتدلَّ على آل الطّارق

فلماذا أدهشَكِ اسمي؟

وتنقّل وجهُك مِن وجهي

مِن جسدي

مِنهُ إلى قدمي

وأمَلتِ يديكِ مُشكّكةً

طارق؟!

وعلى أوراقكَ موجودٌ هذا الطارق؟!

كلا سيّدتي

فالاسمُ حميميُّ التّكوين

يرتادُ الألسنَ بين الحينِ وبين الحين

فعدا جدّي أو عائلتي

ابنُ الحارةِ

إذ أسكنُ في قلبِ الحارةِ

يُدعى طارق

أستاذُ اللغةِ العربيّةِ يُدعى طارق

بيَّاعُ الخردةِ حين يسومُ بضاعتَه

ويصيحُ مرارًا أيضًا طارق

ومذيعُ قناةِ الشّرقيّة

ووزيرُ الصّحةِ والإسكان

اسمي مذكورٌ في القرآن

حتى الأندلسُ ففاتحُها قد سُمّيَ طارق

أمّي سيّدتي في العقدِ السّابعِ

يدعوها جيرانُ الحيِّ بأمِّ الطّارق

تَلبَسُ أثوابًا رملاويّة

وتوضِّبُ شاشتَها البيضاءَ كأرغفةٍ تصنَعُها فجرًا

وتضيءُ _إذا ابتسمت_ أمّي

وأنا من خمسة أفرادٍ قد رضعوا منها الحريّة

وأبي معجونٌ بالزّيتون وبالتّفاح

فلاحٌ أبتي مِن فلاح

مذ هُجِّرَ ما خلعَ الكوفيّة

إنْ شرِبَ الشّايَ وأتبَعهُ فنجانَ القهوة

أو غادرَ تأخذُ حِيطتَها

وتكيلُ الدّعوةَ فالدّعوةَ

وتزفُّ بنيها بالبسَمات

وتشي عيناها إن ضحكت بأناقةِ ورقيِّ العَبرات

مَن يعرفُ أمّي يعرفُها بالقلبِ الصّادق

قلتُ لوالدِكِ في الحفلِ

بأنّي مَن أُدعى طارق

أسرفَ بالقولِ

وأحداقي تسرفُ بالظّنِّ

يمشي

أتبعُهُ وأراني مُبتعدًا منّي

قالَ يُعرِّفُني بالقوم:

هذا ابني تاكي

وهذا جاكي

وابن حفيدي يُدعى ساكي

وأنا زاكي

كنتُ أُسمّى يومًا طارق

كنت أُنادى أيضًا طارق.

السّادسةُ صباحًا

ساعةٌ فوقَ الجدارِ تدقُّ في عجل

وعلى الجدارِ دمٌ

وعلى الدّمِ المسفوك أتربةٌ

بالقربِ منه سِتارةٌ

وعلى الجِدارِ نتوءاتٌ وحشرجةٌ

هذا وقد مَالَ الجِدار

خلفَ الجدارِ مقاعدٌ

وعلى زوايا غرفةٍ صمَّاء يُنسجُ عنكبوت

حبلٌ تدلَّى من جروفِ السّقفِ

والنَفسِ الخفوت

قد أحضروهُ... وكانَ آخرَ سبعةٍ

يحيونَ متّفقينَ فيما بينهم

أن التّلاشي أن تكونَ سواكَ

ليسَ بأن تموت

نحو الجدارِ مشى

تلفَّت واثقًا

مالَ الجدارُ

حذارِ أن يقعَ الجدارْ

ذاتيّةُ الأشجارِ فيكَ تمنَّعت قطعَ الحدود

تتجدّدُ الأغصانُ فيك

ولا يجدِّدُ مَن يحاولُ قطعَها إلا القيود

وديارُ جدِّكَ لم يعدْ في وِسعِها

أن تحتويكَ

وأنتَ إن حدّثتَ هزَّكَ

سائقَ الميترو

زميلَك قد تعاقبُ في قرار

تحتاجُ منها إن ضممتَ بنيكَ

زوجكَ

إن لعبتَ النّردَ في المقهى

وصلَّيت القيامَ إلى قرار

قد حاولت أن تستظلَّ

كأنتَ لكن

ظَلَّ يرفضُها الجدار

قد حاولت ترمِيمَه

لكنّه راضٍ بذاك الانهيار

فبمن سكنتَ لكي تحاورَ قاتلَك؟

وبمَن وثقتَ لكي تصاحبَ خاذلَك؟

وأردتَ ظلّاً ليس يُعطى من جدار؟!

السّادسةُ صباحًا

أريدُ أن أمتلئَ بكِ

أن أصبحَ معجونًا بالكحلِ

إذا ذرفتهُ محاجرُكِ شوقًا

بالدّمعِ إذا أغضبتُ بلا قصدٍ عينيكِ

أحيانًا أحتاجُ بأن أستغرقَ وقتًا

كي أفهمَ كيفَ يكونُ القلبُ برمّتهِ يحتاج إليكِ!

باسقةٌ أنتِ

باسقةٌ خلجاتُ الرّوحِ

وقد تحملُ قصّةَ أنثاي لكي تُسردَ يومًا بلساني

فلماذا يتشابهُ حزني حين أحبّك مع نيساني؟

ولماذا أُحصي زَمنَ الجفوةِ

حينَ أعدُّ وجودكَ _بين يديَّ_ زماني؟!

لو كان لقلبي أن يبدو شيئًا آخرَ لبدا أنتِ

لتكلّمَ مثلكِ حين يكون الحرفُ بغنجتهِ سحرًا

لابتسمَ كما في عمقِ الشّجنِ الهادئ تبتسمين

يا أعذب من تحضرُ في موعدِها

أو تخلُفُ فيه

يا أغرب من أستلُّ إذا جاءت

منها شعرِي كي أطعنَ فيه

يتشابهُ حزني مع نيساني

وأنا أتشابهُ مع مَن في القلبِ ولا أبديه

باسقةٌ أنتِ

أعلمُ هذا مذ كان الحبُّ شرارتَنا الأولى

مذ كان يُحرَّم أن أتسلّقَ نهديك

أو يغضبَ حين أمارسُ ذبحي للشّعرِ بعيدًا عنكِ

أعلمُ هذا مذ أخفيتُ الظلَّ ال يتبعني

كي أنعمَ في ظلِّ

قوامك

أو حينَ حطمتُ الكأسَ بما فيها

وانسكبَ شرابي كي أشربَ من كأسِ شرابِك

أختارُكِ

هذا أوّل ما أفعلُه

أو يفعلُه كلّي فجرًا

آخرُ ما أفعلهُ ليلًا

أجملُ ما يحدثُ لي في اليوم الواحد

فكثيرٌ أنتِ

إذ كلُّك أكثرُ منّي

وأنا واحد.

السّادسةُ صباحًا

لا تهمّني باريس

ولا مدينةُ الضّباب

وكنتُ لا أهتمّ عادةً

فلماذا يهتمُّ من لا يعرفُ الفرقَ بين العطرِ الفرنسي

ورائحةِ الإطارات المشتعلة؟

الفرقَ بين «البيتزا» ورغيفِ الطّابون؟

الفرقَ بين «قصر الإليزيه» وصفيحِ المخيّم؟!

بين الحجرِ البازلتيّ وشاهدِ القبر؟

بين المتحفِ الذي بُني في القرن السابعَ عشرَ

والبيت الذي هُدمَ في القرن العشرين؟

وكنتُ لا أهتمّ عادةً

فسلّةُ الأخبار في دكاننا مليئةٌ بالجثث

ومتجرُ الأرضِ مكدّسٌ بالجماجم

والخصوماتُ الشتويّة

الصّيفيّة

على جلودنا فقط

إذ يصبحُ الإنسانُ تَجرِبَة

في معملِ الحروبِ تَجربة

في مَخبرِ السّلاحِ تجربة

في ساحةِ السّياسة المضّلِلة

في حضرةِ الضّياعِ تجربَة

لا شيء يملأ رأسي منذ الصّباح

روتينُ مشاعري لا طارئَ عليه

الأحاديثُ ذاتُها

الأحداثُ ذاتُها

الحِكمُ الصّباحيةُ ذاتُها

مُعادةٌ في نشرةِ الأخبار للفقراء

خِياراتُ الهجرة عبرَ الجوازات المؤقّتة

والمزوّرة

خِياراتُ الموت عبر البرّ

والبحرِ

والموتِ من قذيفةٍ

أو قنبلة

لا تهمّني باريسُ لأنَّ لا شيء يهمُّني

فطولُ برج إيفيل

أقصرُ من طول المقابر الجماعيّةِ

في بلادي

لا تهمُّني شقراواتُها

فلا فرق عندي بين النّهد الأبيضِ والأسمرِ

على السّرير

ولا الشّعر الطويلِ

ولا القصير

على السّرير

لا أكترثُ لدور السّينما

فأفلام الرّعب التي يُخرجها الأمريكيّ

أفلامٌ مكرّرة

وأفلامُ الحبِّ السّخيفة التي يكتُبها الأمريكيّ

أفلامٌ مكرّرة

والبداياتُ

النّهاياتُ سادتي مكرّرة

لكنّنا الكومبارسُ دومًا في الحكاية.

السّادسةُ صباحًا

قتلوكِ؟!

هذا البحرُ يرفضُ أن يعادي الرّيحَ

والسّفنَ الغريبةَ فاقئًا

مِن أجل عينيها عيونَ الموجِ

والأسماكِ مُحتفيًا بأشباهِ الزّبد

قتلوكِ؟

هذا البحرُ ممتلئُ بخيماتٍ ممزّقةٍ

وأقدامٍ مشقّقةٍ

وليلاتٍ يودُّ الوهمُ فيها أن يعيشَ إلى الأبد

كلُّ القوافلِ قد أضاعَت نوقَها

كلُّ القبائلِ أرسلَت خلفَ السّموألِ بوقَها

وكليبُ تخدعُه البسوسُ

ولا يرى وجهَ الجليلةِ

أو يرى ممشوقَها

والزّيرُ يقتلُهُ الغُرورُ ولا يصدِّقُ ما جرى

يبتاعُ سيفًا

ثم يقتلُ كلَّ أفرادِ القبيلةِ

ثم قيلَ بأنَّهُ للرّومِ أسلمَ درعَه

ويقالُ باعَ الثأرَ

باعَ الخمرَ في ملهى البغايا واشترى

أوطانُنا حقلُ التّجاربِ للرّصاصاتِ المقيمةِ

في صدور الرّافضينَ

القابلينَ

ومن تحدَّث أو تهرَّب أو وقَف

يتربّصونَ وقوعَها

يتحسّسونَ على الظّلام ضلوعَها

يتقاتلون لقتلِها

ولقتلها اتْخذوا فتاةَ الماءِ في «تعز» الهدف

أوطاننا حقلٌ من الألغامِ مزروعٌ بأحلامِ البلادِ وقد

غدت

شبحًا يقالُ له البلاد

تكتظُّ أسواقُ الأمانِ

ومتجرُ الإنسان

والسّلم المسيّس بالعَتاد

تكتظُّ بالوطن المجرّد من زعاماتٍ تليقُ بها السّيادة

بالخائفين من الممات وحيُّهُم

قد ماتَ من قبلِ الولادة

ماذا سيبقى منكِ يا «صنعاءُ» والطّائيُّ يعقِرُ راضيًا

للفُرسِ إن جاءوا جيادَه؟

ماذا سيبقى حين ينهبُ ضَرعَها العربيَّ بُهلولٌ

ويحسبُها بلادَه

حين لا تبقى السّيوفُ هي السّيوفُ

ولا الجيوشُ هي الجيوشُ

ولا القلادةُ حولَ أعناقِ الملوكِ هي القلادَة

قد يُقسِمون على الحضورِ فلا تظنِّي

أن قولًا يحمل اللاءاتِ قد يمشي إليكِ

أو يغادرُ _بعدَ أن يُحكى_ السّطور

إنّهم يخشون من صوتِ ارتشافِ الوجن للدّمع

الحَرور

قد فاضَت الخيباتُ فيهم

فاض فيهم كلٌّ شيءٍ من هروبٍ وانهزامٍ هادئٍ

وبهم تهاوى مثلَ عادتِه الحُضور

يا من قصدتِ الأرضَ للسّقيا

فبتّ السّاقية

يا ألفَ حلمٍ صادروه من الثّياب البالية

يا ألفَ أنثى لم تَجِد في القوم قلبًا حانيًا

فجميعُهم عند الخدورِ زبانية

قتلوكِ؟

قتلوك كي تحيا العمائمُ

والعباءاتُ ال تبيعُ المتنَ

والأنسابَ

والإسنادَ من أجل الهِبات

مَن يصنعونَ مِن المواعظِ بعدَ ليِّ الواضحاتِ

ومثلما يهوى أميرُ المؤمنين لهُ السّياط

مَن يرقصونُ إذا لهم غنّى أميرُ المؤمنين

مَن صفّقوا للتّأتآتِ إذا بها يشدو أميرُ المؤمنين

مَن حلّلوا ما لا يحرِّمهُ أميرُ المؤمنين

مَن أرَّخوا ما لا يقومُ به أميرُ المؤمنين

مَن أمّموا المحمولَ والبترولَ والفوتبولَ

والقبَّاتِ والسّاحاتِ

والباراتِ والحاناتِ كي يرضى أميرُ المؤمنين

مَن حرّموا مضغَ اللبانِ

وحرَّموا صوتَ السّنانِ

وفاخروا ببني قريظةَ مثلما يهوى أميرُ المؤمنين

سقطت ملامحُهم كما أسنانُهم

سقطت وقُصَّ لسانُهم

وهُمُ بآلاءِ الأميرِ يسبِّحون

قتلوكِ...

فالرّجلُ الذي يختار عند الجدّ أوساطَ الحلولِ

لجبنهِ

يختارُ وجهَك للعَداء

هو لم يَرِد نبعًا

ولم يعرف بأنّ الماءَ يسكنُ في العراء

هو لم يكن كالنّسوةِ المُتأنّقاتِ بخمرهنّ

يَرِدنَ بالطّهرِ الشّفيفِ البئرَ في ظلِّ الدّلاء

يخشى فلا تتوقّفي عن كنسِ هذي الأرضِ

من هذا الهُراء

عن زرعِ بتلاتِ الطّفولةِ

في بساتين البقاء

يخشون أن تلهو ضفائرُكِ الطّويلةُ بالدّمى

يخشون من عينيك إذ تهمي الحقيقةُ منهما

يخشون

والكفُّ التي قنصتكِ لم تقنص بتاريخِ الحروب

سوى الظّباء.

السّادسةُ صباحًا

آخرُ امرأةٍ مرَّت من هنا تناوَلت شغفي وغادرت

بزعيقِ حاجبها

بنزقِ كتفيها اللامباليتين

بحمرةِ وجنتيها المتنافرتين

بنهديها المطّاطِيّين المحشوِّين بالحلوى

بيديها المغطَّستين بالنّعومةِ

ورعشةِ انتظار شيء ما

آخر امرأة مرَّت من هنا لم تترك عنوانَها

قالت: سنلتقي قرب مقطوعةٍ موسيقيّة

أو عند آخر صهلةٍ تكتمُها الرّغبة

أو عند مرور عطرِ امرأةٍ تحرّرَ من سطوتها

وقالت أيضًا وهي تمصُّ أذني:

الجوريّةُ لا تبتعدُ كثيرًا

آخر امرأة فكّت أزرارَ قميصي وزرَّرتهُ ألفَ مرّة

حلَقت لي ذقني دون احترافيّة

التهَمَت عشبَ صدري بوحشيةِ الجنادب

وهي من تركت قصاصةً تافهةً حينما غادرت

وقبلةً على جبيني

وخدوشًا على ظهري

وهي من تناست أحمرَ الشّفاه على سريري

آخر مَن مرَّت

كانت برداءة صوتها تغنّي دونما توقّف

وتصفّق كالأطفال أمام القطارِ الصّغير

وتقلّدُ الهنودَ الحمر أثناء قبضها علي

ويُقال بأنّ المرأةَ هذي

قتلت ألفَ رجلٍ

وألفَ موعد عابر

وألفَ نصٍّ شعريّ

وتركتني حيًّا.

السّادسةُ صباحًا

إنَّ ساعتي ومُذ تعطّلت

تـُشيرُ نحوَ الواحدة

ودخولُكِ السّريُّ بيتي

ليسَ يدهشُني فقط

بل يدهشُ الفراغَ والدّخانَ إذ نفثتُهُ

ويدهشُ الجدرانَ إذ تعوَّدَت

ألّا تَراني جالسًا أُصغِي إلى مُعاتِبة

ثوري بمنطِقِك الغريبِ

ولا تبالي إن تركتكِ

كي أحضِّر شايَنا هربًا من الشّكوى

لديكِ أو العتاب

قودي انقلابًا قد يحرّرُكِ من المهزومِ في صوتي

فلن تتحرّري منّي

ومن وجعِ القصيدةِ إن أردتِ بلا انقلاب

هذا مكانُ الهارباتِ

ومَن أردنَ النّومَ بين دفاتري

هذا مكانُ الغاضباتِ عليَّ أحيانًا

لأنّي لم يلد قلبي لهن كما أردن مشاعري

قد تقرئينَ كما قرأنَ اللحظةَ الأولى لموت عزيمتي

قد تشهدينَ معاركَ الأيامِ

فلسفةَ الجراح

وقد ترَينَ دمي يسيلُ على دمي

وترَينَ في نزقِ المكانِ وما تركنَ وراءهنَّ مآثري

اللیلةُ الأولى كهذي اللوحةِ المُسجاةِ في النّيرانِ

لا ذكرى لها

الصّيفُ فيها لم يطالب ريشةَ الرّسامِ

أن يجري كطفلٍ عابثٍ

فوقَ الرّمالِ

وغروبُها المنسيُّ مُذ علّقتُها

ما زالَ يغرُبُ دون أن تخفيهِ ساكنةُ التّلالِ

مَن كان يسكنُني قديمًا قد مضى

وتفتّشينَ عليهِ مُذ حادثتكِ عن كوبِ شايي من خلالي

هل تتقنين الرّقصَ إن يومًا مضيتُ بنا لنقتلَ عبرَ

رقصتنا الجمود؟

هل تتقنين خياطةَ الجرحِ الذي في داخلي؟

هل منكِ أشفى؟

كم سأسألُ كنتُ هذا اليومَ عن وجعٍ يطبّبُه الشّرود

أنا في مكاني

غيرَ أني لستُ أعرفُ كيف من سفري أعود

هذا مكان الرّافضاتِ لدعوتي

إذ بتُّ لا أدعو سوايَ على العشاءِ

المقعدُ المحجوزُ كانَ نكايةً

بالفردَويّةِ داخلي

بتجرّدي من كلِّ لحن قد يقودُ إلى البكاءِ

بتجرّدي من كلِّ لونٍ فوق لوحاتي يكون من انتقائي

أنا غاضبٌ منّي ومنكِ

ومن الغيومِ الباعثاتِ الحزنَ في هذا الشّتاءِ

مِن كلّ لوحاتي التي آلمتها

من كلِّ أشيائي ومقتنياتي

أنا غاضبٌ

ما دمتِ تستمعينَ صامتةَ الجوارحِ مِن فمي

فقدَ استساغَ طعامَه ال يخلو مِن الحلوى

من العُنّابِ

مِن لحمِ الظّباءِ

لو كنتِ لي

لو كانَ لي

أن أحقنَ الكلامَ _كلما كرّرتُني وفردتُ

ذاكرتي أمامي_ بالسّكوت

لنزعتُ منّي مَن أردتِ بقاءَه

من شئتِ أن يحيا وشئتُ بأن يموت

مهزومةٌ تلكَ البحارُ صديقتي

تلك التي في داخلي

تلك التي لا تعرفُ الأمواجُ فيها كيفَ تبتلعُ اليُخوت.

السّادسةُ صباحًا

للمرّةِ الأولى تفضّلينَ الغرق

وللمرّةِ الألف تلمِلمينَ عطرك

والفائضَ من كلّ ما فيك وتحضرين

كيفَ تجتمعُ جمرةٌ ملتهبةٌ مع طفلةٍ مائيّةٍ في جسدك؟

كيف تمتدُّ الصّحراءُ إلى فصلِ ربيعك بهذا الشّكل؟

للمرّة الأولى تتملّصين من ذراعيَّ

ومِن أنفاسي المحترقة

تتملّقينَ البرودَ كي يتساقطَ فوقَ الرّغبةِ فينا صمتُ

الشّفتين

تتجرّدين من همساتي بصوت التّأنيبِ الميّت

تبادلين نظراتي بعباراتٍ حُبلى: بتوقّف

يكفي

يكفينا

حطَّمت وجودي

أخشاكِ وأخشى نفسي

أستسلمُ للرّفضِ

ولا أستسلمُ للخوفِ النّابتِ في هذا الصّوت النّاعم

أتوقّفُ عن عزفي

ولا أتوقّف عن إغراقي باللحن الصّادر من شفتيكِ

أتوقّعُ أن أمسكَ بين يديَّ اللحظةَ

كي أفترسَ الأنثى فيك

بهدوءٍ تعشقُ أنثاي بأن أعصرَها بهدوء

أشتمُّ النّهدَ النّافرَ وأداعبُ تكويرًا لا يتكرّرُ فيه

وأمرّرُ بعض الشّعرِ على الحلماتِ الآبقةِ على هرمِ

الممنوع

فارتدي لي فستانَك الأحمرَ

واخلعي ما تحته مِن ثياب

أنتِ كما أنتِ هكذا الأنثى التي تفتحُ بابًا

وتغلقُ ألف باب

أنتِ كما أنتِ هكذا بلا مساحيقَ شهيّةٌ

ولذيذةُ النّهدِ

وناعمةُ الرّضاب

إنّهُ موسمُ الحبِّ البدائيِّ الذي

تتماهى فيهِ وديانٌ لتسكنَ في الهضاب

إنّه عزفُ الشّفاه على انحناءاتٍ مُغنَّجَةٍ

فهل في الآه شيءٌ مِن عذاب؟

ارتدي لي فستانك الأحمرَ إن دعانا الليلُ

أن نخلعَ عنَّا الخوف

ونستسلمَ لمذاقاتِ السّرير

إنّني بالكاد أمشي كلّما فاجأتِني بالنّهدِ منكفئًا على

جنبيهِ

والحلماتِ إن لجَأت لثغري بين حمَّى اللثمِ

أو حمَّى الزّفير

إنّني أزحفُ فوقَ هذا الجسدِ الماثلِ للعصرِ

وللجذبِ... ونيرانِ السّعير

كلُّ ما يبدو أمامي كانَ قبلَ لقائنا

في رشّةِ العطرِ التي تتعطّرينَ بها يطيرِ

إني أشمُّ اللهفةَ الأولى الأخيرةَ فوقَ هذا النّحرِ

تحت الأذنِ

بين الذّقنِ والشّفةِ الصّغيرةِ

حين يختارُ الأسيرُ السّجنَ

والسّجنُ الأسير

إنّني أرفعُ كلَّ أسلحتي بوجهِ الصّمتِ

أدفعُها ككلِّ الرّاغبين إلى التقاء

أنّني لمَّا أعانقُ كلَّ ما فيكِ

أعانقُ كلَّ صوتٍ شبَّعتهُ الهمسةُ الحيرى

إذا امتزجَ النّداءُ مع النّداء

ارتدي فستانك الأحمرَ ومِن ثم اخلعيه

عندَ آخرِ رقصةٍ

أو عندِ أوّلِ شهقةٍ

أو عند أشهى غنجةٍ عنك اطرحيه

ليلُنا لا يفضحُ الأسرارَ إن لم تلبَسيه

فاستريحي جيّدًا

ثم استحمّي بالخجل

وتحسّسي وجهي بكفَّيكِ وثغري بالقُبل

ها أنتِ أنثاي التي تنحازُ للجسدينِ إن باتا

كيانًا واحدًا

مُستسلمًا لمَّا شرعنا بالغزل.

السّادسةُ صباحًا

لا أريدُ أن أموتَ السّاعة

مقلقةٌ أمواجُ الليلِ على الحائط

وبقايا ضوءٍ هَرِمَ ولم يَشهد ما شنقَ السّقفُ من

الأنفاس

يرتدُّ كثيري نحو قليلي

وقليلٌ يسقطُ في بئرِ الألوان الباهتةِ كقطرةِ ماءٍ

قد سُفِكت من قطرةِ ماء

يُستنسخُ منّي جرمٌ جلديٌّ يطفحُ بالأبيضِ والأسودِ

والهيكلُ من قشٍّ وأعوادِ الأيامِ اليابسةِ

على شكلِ عظام

لو حُنِّطَ لم يعرفهُ الباحثُ عنه

لتداخلَ فيهِ الوقتُ مع العدمِ

مع ظلِّ البرزخِ

في صندوقٍ قد ضاقَ بهيئتهِ الرّثَّة

لو نُقِّبَ في رئتيهِ لفاضت تبغًا

وتهاوت عند صفيرِ الدّهشةِ أعمدةٌ هشَّة

ما زلتُ أحلّلُ ما أعنيهِ لهذا الموت

منزعجٌ من ضجري حين أكونُ هلاميَّ الأفكار

ينشقُّ مِن السّاعاتِ اللاهثةِ إلى حتفي وقتٌ لأراني

فيُريني ما لستُ أراه

وقتٌ لا يسمحُ للأشياء بأن تتحرّك

للظلِّ بأن يتمدّدَ أكثرَ مما كان عليه

للعودِ بأن يشهقَ تحت الماءِ بلا رئتين

وقتٌ مُستقطع

لا يبدو قيدي الآن سوى خجلي أن أُظهرَ حبسي

مُنتفضًا

وأثور عليه

أن أقطعَ حبلَ مشيمةِ قلبٍ لا يمنحُ ساكنَه

إن ولجَ إلى رَدهتهِ حُجرَة

لا يجلسُ محتسيًا عطرَ امرأةٍ بعثت بوشاحٍ كُتبَ عليهِ:

قد كنتُكَ أنت

كم مضجرٌ أن أنتهي بهذه البلادةِ الطّريفة!

يليقُ بي أن أحتفي بطعنةٍ في الخاصرة

يليقُ بي أن تشعرَ الجراحُ أنّها في بيتها الصّغير

فترتدي ملابسي

وتنتقي كتابها في فترةِ استراحةِ المحاربِ الزّنيمِ

من مكاتبي

وقد تعِدُّ مثلما أعدُّ وجبةَ العشاء من قصائدي

كم مرهقٌ أن أنتهي بهذه الطّريقةِ القديمة

مِن دون مشهدٍ أكون فيه ما أريد

مِن دون أن أقول جملةً سخيفةً تدلُّ أنَّ آخرَ الكلامِ

عادةً يزوِّرُ الحقيقة

يليقُ بالظّلامِ بعد موتهِ أن يقتفي بريقَه

هذه النّهاياتُ المفتوحةُ لا تروقُ لي

أجهزةُ القلبِ بأصواتِها المزعجةِ لا تروق لي

الأسرَّةُ البيضاء

الممرّضاتُ بابتساماتهن المتكلّفة

الأطبّاءُ بنبَراتهم الجافّة

الحلقُة الأخيرةُ من كلِّ شيء لا تروق لي

أمَّا أنا وكيفما أكونُ لا أروقُ لي

ما أحتاجه الآنَ هو عودٌ شرقيٌّ

وأوراقٌ مُسطَّرة

ونصفُ قلمٍ قد يفي بالغرض

وأحتاجُ أن أعتمِرَ قبعةً أهدِيتْ لي في عاميَ الخمسين

قد غابَ مَن أتى بها إليّ

قد غابَ دون أن يرى بطاقتي

ومن أكونُ

أو يرى إن كنتُ بانتظارها

إن كنتُ مَن عليهِ أن يكونَ بانتظارِها

وقيلَ حين عادَ يستردُّ طردَه مُغاضِبًا

أشادَ بي مُخادعًا إذ كنتُ قد رحلت

ما أحتاجهُ الآن لا يبدو مُستحيلًا

فالقليلُ من الثّناءِ

والقليلُ من الرّياءِ

والقليلُ من الفائضِ منّي حين أعبّرُ عنّي

قد يفي بالغرض

وأحتاج لي

وللسّيرةِ التي تخلو من اسمي ومقتطفاتِ بؤسي

للسّيرةِ التي لا يدفعُ الإنسانُ فيها ثمنًا للفائضِ منه

أرغبُ بتقمّصِ حياةِ رجلٍ آخر

كائنٍ ليليٍّ يثرثرُ عن فريقه المفضّل

وفيلمه المفضّل

وطبقِهِ المفضّل

ومطربتهِ التي فقدت عذريتَها في العاشرةِ من عمرها

بالحديث عنه كأنا

لن تعرفَ الممرّضةُ أن اسمي ليس الاسمَ الذي

أخبرتها به

لن تعرف بأنّ زوجتي التي لم تحضر لزيارتي..

ليست زوجتي

وأن الأولاد الذين ذكرتهم لها ليسوا سوى أسماءٍ..

قططٍ ضالّة

أنّ أمّي التي تزفُّني بالدّعواتِ كلّما غادرتُ

لم تكن سوى صورةٍ زيتيّة تموجُ في إطار

سأخبرها أنّني بلغتُ الثّلاثين البارحة

أنّني أعمل عازفًا في بارٍ مُزدحمٍ بالعاهرات

أن أجملَ امرأة هناك باعت أقراطَها يومَ استعرتُ

قلبَها

وجفَّ من برودةِ الفِراق

أنّ ساعتي الثّمينةَ التي فقدتها

وجدتها بعد يومٍ واحدٍ

في متجرٍ يبيعُ للزّبائنِ القليلةِ الخضار

سأخبرها أن صوتي يشبه صوتَ «بافاروتي»

أن مخارجَ الصّوتِ لدي أنقى من دمعةِ عذراءَ

ودمعةِ طفلٍ هدهدهُ صدرُ العذراء

وحين أغنّي لها سأعترف أنّ صوتي فقد ذاكرته لا

غير

أنّه غابَ لأيامٍ في جوفي فابتلعتهُ شرابيني

لن أموتَ الآن

هذا ما أحدِّث به نفسي

كيف لي أن أموت دونَ أن آخذ معي ابتسامةً واحدة؟

موقفًا طريفًا واحدا؟

نصرًا زائفا؟

تصفيقًا حارًّا من الجالسين في المسرح؟

لم يصدّقوا أنّه أنا

أن المهرّجَ قد يبدو في النّصِّ زعيمَ عصابة

أنه قد يدخّنُ السيّجارَ واضعًا قدميه على الطّاولة

أن الأصباغَ دماءٌ من أجسادِ ضحايا نُزِفت منُه

على جفنيهِ

وخديهِ

وكفيه

لم يكترثوا أنَّ مشاهدَ موتِ البطلةِ تخلو منه

كيف أموتُ ولم أحيا في هذا الوقت

دون أن تعترفَ جارتي العانس أنّني السّبب بعنوستها؟

دون أن تعترفَ العابرةُ بأني أغربُ من عرَفت؟

دون أن تهمس إحداهُن بإحداهن: هذا هو؟

يقول صاحبُ الدّكانة لي:

كنتَ بارعًا بالسّرقة

أنت لصٌّ بالفطرة

لا أصدّقه

لم أفتش مرّةً جيوبي باحثًا عن الغنائم الفطريّة

أمدُّ يدي الآن فأجدُ تاريخًا حافلًا بالخطايا الصّغيرة

أجدُ دكانةً تحت سريري من التّبريرات

من الأحاديث الهادئةِ الموتورة

مئاتِ القبلات

مئاتِ اللكمات

مئاتِ الألفاظِ الجارحةِ الممنوعة

أجادلُ صاحبَ الدّكانة

أعاتبُه بودّ:

قد كنتُ بارعًا بإخفائها فقط

ما لم يحدث يومَ الأربعاء

هو ما لم يحدث يوم السّبت

حضرَ إمامُ الجامع يرفعُ كفّيهِ ويدعو

يراني زنديقًا

الفقيرُ زنديقٌ يا سيّدي

وكاذبٌ مُحترف

يراني منحرفًا عن نهجِ الأسلافِ وما قالوه

فأشكُّ ويشكُّ بذلك

يراني رغم كلِّ هذا طيّبًا رقيقًا

الجبانُ سيّدي بالعادة رجلٌ رقيق

يتمتمُ على رأسي مبتسمًا ويمضي

أودُّ التّحليقَ خلفَه

أطالبُهم بأجنحةٍ من الشّراشفِ الملوّنة

أدور كالصّوفيِّ

وتدورُ الأسلاكُ والأنابيبُ حولي بدروشةٍ مُنظَّمة

يا أيّها الوحشُ الذي يُسكننِي كن فريسةً فقط

أخاطبُه بود

كن مرّةً في جوقةِ العواء هادئًا

أقولُها مجدّدًا بود

وذوِّبِ المخالبَ التي ارتديتَها كما تذوِّبُ العيونُ

دمعَها

أو مثلما يذُّوب الأحجارَ رغم رفضِها المطر

أخرِجُ منّي غَضبًا منّي

ويسودُ هدوءٌ في قاعةِ صدري..

لا يقطعهُ سوى تمتمةِ الشّيخِ

وحوقلةٍ قد غصَّ بها

وتماهت فيه

تحضرُ مَن أحببتُ بباقةِ ورد صفراء

تجلسُ دون أن تعبثَ في شعرها

دون أن يبدو عليها أنّها تعرفني

هل أعرفُها؟

تبدو أكبرَ سنًّا من بائعةِ الأقراط أو العذراء

وأنا ما زلتُ لديها طفلًا

قد شاخت في عينيهِ النّظرة

تمضي دون أن أسألَها عن آخر لعنةٍ..

صبَّتها في مسامعي

عن سببِ عشقها للشّتائمِ البذيئة

عن جلوسِها مُحرّكةً أطرافَها بعصبيّةِ السّناجب

تمضي بأصابعَ حاكت يومًا لي كفني

وثيابًا باعت أجملَها مُذ فقدَت أثري

تسألني إحداهنّ ولا تكترثُ لما تسمع: من تلكَ؟

أجيبُ ولا تكترثُ لما تسمع:

عابرةٌ ضلّت كالجميعِ طريقَها

ثم أعود للحديث عن طريقتي في عمل البيتزا

وخفّتي بصنع كعكةِ الفريز

ومهارتي بإعداد البيض

هل أحدّثُها عن براعتي بتحريك القهوة؟

ولماذا القهوة؟

سحقا للقهوة

أتقمّصُ الآخرَ مراهنًا أنَّها ستمطرُ بعد قليل

تتفحّص الشّمسَ ضاحكةً

أتفحّصُ أنا المطرَ الذي لا يأتي

ليس وحدَه الذي لا يأتي

فابنتي الوحيدةُ التي تكرهني لم تأتِ

زميلتي المتبرجةُ كعادتها بالعطرِ وبالأصباغِ لم تأتِ

وكلبي الوفيّ الذي تبنيتُه جروًا يتيمًا لم يأتِ

وصاحبُ الشّقّة الذي يطالبني عادةً بالإيجار لم يأتِ

وصديقي الذي قتلَ زوجتَهُ بالسّمِّ لأنّها لا تتقنُ الرّقص

لم يأتِ

مَن هؤلاء الذين لا أعرفهم؟

لا أعرفُهم

أضحك حينَ تمرُّ بذاكرتي ذاكرةٌ أخرى

يتوعّدني قلبي بالموت فلا أكترثُ لعجرفتِه

تتوعّدني عيناي بأن تنظرَ نحو النّافذة فلا أنظر

خلف النّافذة حياةٌ أخرى

لا أكترثُ لما تَعنيه

ما الجدوى مِن طفلٍ يُمسك بيديّ أمّه؟

ما الجدوى من صوتِ الباعةِ في الطّرقات؟

ما الجدوى من وجهٍ يبكي

ويدٍ تمسح هذا الدّمع بمنديل أبيض؟

ما الجدوى من فاتنةٍ تلبسُ أقصر فستانٍ

من أجل حبيبٍ سافر في الأمسِ إلى روما؟

ما الجدوى من أحداثٍ لا تحدثُ إلا حينَ نراها

لا نعرفُ كيف تلاشت

أو نعرفُ فيها مَن يتلاشى

كنتُ هناك

أتحسّسُ نبضي

لا يشبه نبضي نبضَ الرّجل ال كان هناك

حتى قدمي

تبدو أقصر مما كانت

أنهكها السّيرُ على الطّرقات

ويدي أكثرَ حزنًا مما كانت

لا تسرقُ شيئًا

لا تمتدُّ إلى كفٍّ ملساءَ لتمسحَ عنها وحشتَها

حتى جسدي

حين يراني أجلسُ فوق سريري..

يتّخذُ الكنبَ كصومعةٍ له

أشتمهُ

هذا الأحمقُ قد يقتلُ نفسَه

أدعوه إلي

تدعوهُ الجفوةُ أن نبتكرَ بلا قصدٍ طرقًا للموتِ

وللتّهريجِ ما دام يريد

هذا الأحمق يخشى أن يرحلَ بالمجّان

أو دونَ صهيلٍ تصدرهُ أنثى

ينتظرُ قليلًا

يقسمُ أنّ أظافرها غُرزَت في ظهري

يقسم أنّ مكانَ العضّة قربَ مكان القبلةِ

وبأنّ صريرَ الغنجة مرَّت من بين يديه

فوق سريري؟

أسألُه

يصمتُ ويجيبُ

ومِن ثم يجيبُ بأنّ امرأةً لا تملكُ شفتينِ

ولا نهدينِ

أناخت ليلتها قربي

وجهي... يا وجهي

أسمعُني مِن قبل حديثي ويدلُّ عليَّ الموت

وجهي يسمعُني

هل كان كئيبًا مثل الآن قبيلَ مصاحبتي إيّاه؟

مرّت بضعُ دقائق لم يتحرّك

ثم اشتدَّ بحمرته... ثم تثاءب

أسألُه عمَّا يخفيهِ فلا يكترثُ

ولا يبحثُ إلا عن لقبٍ يصلحُ له

أنعتُه بالصّامت حينًا

وبالصّامتِ أحيانًا أخرى

ويدي أنعتها مذ سرَقَتْ بيدي الفُضلى

ودمي أو جسدي بالآبق

وفمي بالفخ

يتردّدُ حين يقول: قد كنتُ حزينًا

لا يجدُ المعنى المرجوَّ فيصمت

ثم يقول: لن تمطرَ هذا اليوم

لن تحضرَ بائعةُ الكبريت لتشعلَ آخر عودٍ في جعبتها

لن يحضرَ أبناءُ أبيكَ لكي تشكو..

ما فعلَت فيك دماءُ أبيك

جيناتُ أبيكَ المارقةُ على أجمل ما فيك

أورثكَ وقد مات أصابعَه

وإطارًا يسجنُ أمّكَ فيهِ فلم تتحرّر

وكذا الألوانُ الزّيتيةُ لم تتحرّر

لا يجدُ المعنى المرجوَّ فيصمتُ

ثم يقولُ وقد قفزَ إلى الخلف قليلا:

لم تشرب ما ينسيك الموتَ

ولم تعزف موسيقاكَ كأشقى من قد ماتَ وحيدًا

لم تكتب آخر سطرٍ مثلَ الجبناء

لم تضعِ القلمَ على الأوراقِ

ولم تكتب حدثا لم يحدث

أقذفهُ عنّي

أُقصيهُ ولا أستمعُ إليهِ

أتذكرُ أني فوقَ سريرٍ يحمل تاريخَ خطاياي الفطريّة

وبأنّ أمامي ما مرَّ بهِ

وما يعرفهُ رجلٌ آخر

يمشي تحت النّافذةِ ويلوّح لي

أتقزُّم أكثر

يعرفُ ذلك... ويلوِّحُ لي

أحتاجُ الآن لذاكرةٍ تحتفظُ بإنسانٍ يتمدّدُ فوق سريري

يتحدّثُ عن جارتِه العانس

عن آخر ما لُعِن بهِ من أنثى لا تملكُ شفتين

ولا نهدين

عن ذاك الجمهور وقد صفّقَ من دون يدين

ويلوِّحُ من تحتِ النّافذةِ لرجلٍ آخر

لرجلٍ قد جلسَ لينتظرَ الموت.

السّادسةُ صباحًا

يومًا ما ستلدُ الأشجارُ أفواهًا جائعة

ووجوهًا تختلفُ في ألوانها

وأطرافِها

وميزاتِ التّناغمِ فيما بينها

ستلدُ بحرًا

سنمكثُ طويلًا على أغصانها الفولاذيّة

سنتعربشُ طردًا للملل من ورقةٍ لأخرى

ونتلذّذ بأكلِ قلوب الجرادِ كحلوى نادرة

ستلدُ بحرًا لا ينقصُه سوى الضّفاف

واليابسةِ

وبعضِ الطّحالب

لوحدِها ستجدُ موطنَها إليه

وكذلك البجعُ المفضّل لأسماكٍ لم تهتدِ إليهِ بعد

ننتظر أن تسيرَ بنا إليه

أو يعودَ لها من جديد

أقصدُ الشّجرةَ والبحر

أقصدُ البحرَ الذي لا يشبهُ بحر الشّيخ

فلا قرشَ هناك لسرقةِ سمكةِ «سانتياغو»

ولا يجلسُ بالقربِ من بحرنا غلامٌ ينتظرُ المعجزة

هل فكرتِ يومًا في أن يكونَ البحرُ أنثى؟

هل راوده يومًا ذاك الشّعورُ بالخوفِ منَّا؟

هل يا ترى تجرُحه عميقًا السّفنُ حين تحاربُه

وتصيبهُ القواربُ بالنّدوب؟

هل يشعرُ بأنّنا ننتهك خلوتَه مع نفسه؟

لا يهمُّني كلُّ هذا

لست حزينًا لأجلهِ

لكنّهُ الضّجر

لا أتساءل لأنّني أحبُّه

ولا لأنّ صوتَه يُطربني أو يُخيفني

هي مجرد تساؤلات فارغة

هل هي زرقاء؟

ماذا لو كانت أعيننا تستلهمُ لونًا من داخلنا..

لا يعكسُ شكلَ الأشياء؟

لم يثر خارج حدود سلطته عليَّ

لم يمتعض حين رآني أُخرجُ من جيبي...

صَدَفةً لأنفخَ فيها

لم يتأفّف حين فتحتُ مذكّرتي وكتبتُ عليها:

صادفني شيءٌ أحمق

لم ينم كما الأطفال في رحلة العودة

بدا متحمّسًا لفكرةِ الرّكضِ دونما هدف

والمسير دونما هدف

والذّهاب إلى أيِّ مكانٍ وشيءٍ دونما هدف

بدا مُتحمّسًا أن يجلسَ واقفًا

ويركضَ جالسًا

ويغني معي لنُزعِجَ كلَّ هذا الهدوء

الحقيقة لم يغنّ

أنا مَن فعل

هل حدّثتك عن بحرٍ لا يعرفُ أين يسكنُ تحديدًا؟

هذا هو بحرُ البارحة

تركته تائها في حواري المدينة

خدعتُه أخيرًا

لم يرتكب ذنبًا

لكنني تلذذت بخداعهِ

بشريَّتي أمكرُ منه ومنّي

طريقُ عودتِنا مليئةٌ بالذّهاب

مليئةٌ بالعناوين الكاذبة

هل حدّثتك عن بحر لا يجيد أيَّ لغة؟

هذا هو بحر البارحة

أُميٌّ في عصرِ الحضارة

كلاسيكيٌّ في زمنِ ما بعد الحداثَة

يا صديقتي لم يكن بحرًا كما ظننَّا

كان ماءً يتجمّعُ في مكان عميق

مكانٍ كبير

كان ماءً يتوحّد من أجل الزّعامة

وبسطِ النّفوذ

وقتلِ السّفن الغازية

والقواربِ المناوشة

كان ماءً لا يصلحُ للشّربِ ولا للسّيرِ عليه

كانت أمُّه شجرة ثابتةً في مكانها

منها تعلَّمَ الثّباتَ والاهتزاز

منها تعلم السّكونَ والضّجيج

لكنه لم يتعلّم الوقوفَ مثلما يجب

كانت شجرةً

لكنه عقَّها في رحلةِ البحث عن الذات

قلتُ لكِ: لم يكن بحرًا

كان ماءً فلمَّا تفرَّق بين القبائل مات هناك وحيدًا

تندهشين؟!... ماتَ إذن على دُفعات

لا تصدّقين؟!

مات كما يموت الخيلُ في نهايةِ السّباق

لا تصدّقين؟!

لم يمت إذن... لكنه لن يعود.

السّادسةُ صباحًا

سأمضي بما يحملُ الشيبُ مني

وما تحملُ السّاقُ مما تكسَّرَ دون السّقوطِ

ودون ارتمائي على صدرهِ

وفي لحظتيّ اعترافي أمامي

وأيًّا سأركبُ من حافلاتِ الزّمانِ

أمدُّ يدي للغلامِ الشّقيِّ

الصّبي الغبيِّ

فألقى كوابيسَه الجاثماتِ

يعربدنَ كالمومساتِ الحُبالى عليهِ

ويسخرنَ منهُ

ومِن طهرهِ

ويذبحنهُ

يقتلعنَ البراءةَ

كلَّ العنادلِ في فكرهِ

يفرِّغنَهُ منهُ

مِن محتواه

ومِن آدميَّتهِ حينَ ماتت

مراكبُهُ

لحظتاهُ

الدّواةُ

وقهرُ الملامحِ في برِّهِ

ومهما تأرنبَ في سرِّه

ومهما تمجَّدَ في جهرهِ

وأمضي بما فيهِ من قادمٍ

تخلَّف عن وعدهِ إذ تجيءُ

البعيداتُ من قادمٍ للحضورِ

وتُشوى انتظاراتُهُ _للبعيدِ

البسيطِ

العنيدِ _على قهرهِ

تمرُّ المسافاتُ حتى يضيقُ

ولا وجهَ يعرفُ لمَّا تمرُّ

ولا طفلةٌ ظنَّتِ الغيمَ حلوى رآها

وكانت تظنُّ الفراشاتِ تصحو

وتغفو اختيالًا على سطرهِ

وظنَّت ككلِّ اللواتي عشقنَ

سيأتي على خيلهِ مانحًا

يديها

ضفائرَها النّاعماتِ

عنانَ العناقاتِ والمُضحكاتِ

فلا يُشفقانِ على ظهرِه

وكانت تظنُّ

وقد ظنَّ هذا

فجاءَ الزّمانُ على ظنّهِ

وغارَ الصهيلُ على مهرهِ

وظنَّت

ككلِّ اللواتي عشقنَ

سيأتي بما فيهِ من عاشقٍ

ببعضِ الورودِ

الحروفِ

الجديدِ

فلمَّا رأتهُ رأت عاشقًا

يسيرُ ببعضِ الورودِ

الحروفِ

ببعضِ الشّواهدِ في قبرهِ.

السّادسةُ صباحًا

هي أرضُكَ البورُ التي استصلحتَها

ورسمتَها بأرزِّها

بالقطنِ

بالبلحِ المجاورِ قمحَها

ووهبتَ مثل أبيكَ آخرَ ما لديك وأوَّلَك

وهي التي لوَّنتها

أو لوَّنتك بشمسها

وسمائها

لتكونَ لك

هي أنتَ

يشبهكَ الترابُ فلا تدع سمسارَها يبتاعُ صخركَ

بيتك الطينيَّ

نخلتكَ العتيقةَ إنَّهُ

لبِناءِ أروقةِ القصورِ على الجماجم سوف يَهدِمُ منزلَك

ولأجلِ أن يحيا ببذلتهِ الأنيقةِ

بابتسامتهِ الغبيةِ

بالبلاهةِ قد يَكِيدُ ليقتلَك

هي أنتَ إن رفضت يداك بأن تصفّقَ للذي

سُفكَ الفقيرُ على يديه

ولديك أنتَ ولن تكونَ كما يشاءُ لها لديه

هي أنتَ فالزم موطنَك

سمسارنا من أجلِ بركتهِ وربطَةِ عنقهِ

قد باعَ قريتَك القديمةَ

والمناحلَ

والحظائرَ ضاحكًا

وكذا اشترى من دون أن يبتاعَ شيئًا مصيفَك

هي أرضك الموجودُ فيها أنت من قبل الحضارةِ

والحجارة

هو لا يرى ما فيك أو فيها سوى

دكانةٍ لم يبقَ من حيطانها ورفوفِها

إلا النُشَارة

تلك العصابةُ حوَّلت دمَنا

وعظمَ الميّتين إلى بضاعة

تلك العصابةُ لم تخض حربًا

ومعركةً سوى في الشّاشةِ الزرقاء

والتّلفازِ

والصّحفِ العميلةِ والإذاعة

تلك العصابةُ من تهدّدنا

وتقمعُنا

وتضرِبُنا بحدِّ السّيفِ تخشى من ذبابة

تلك العصابةُ لم تكن

مُذ زوَّرت تاريخَها إلا عصابة

هم يـهدِمُون الرّفض فيكَ

فلا تطع من يهدمون

هم ينسِفون مرارةَ اللاءات فيك

فلا تدعهم يَنعَمون

كن في مكانك

إن فيكَ من البقاءِ الجذرَ كي فيها تُشرّشَ

حين لا يبقى سواكَ ويرحلون

كن في مكانك

فوقَ ردمِك إنّهم

وبكلِّ ما فيهم لديها عابرون.

السّادسةُ صباحًا

أغتاظ من وجهٍ طفوليِّ الملامحِ والصّفات

وبراءةٍ تُخفي القساوةَ خلفها

ورسالةٍ تبدو الأخيرةَ

ثم تتبعُها بأخرى

ثم أخرى

ثم تُطوى بعدَ عاصفةٍ من التّهديدِ

والتّلويحِ

والتّمهيدِ ألّا نلتقي بعبارةٍ خجلى

تقودُ لأخريات

مذعورةٌ منّي!

قشورٌ هذه الكلماتُ

أقبيةٌ نلوذُ بها

نجرُّ وراءها الرّغباتِ إن سارت لكي تُبطِئ

إذا ابتعدَت مغاضبةً

إذا شاءت بأن تُبعِد

وأطلبُ موعدًا آخر

وأعلم كم مشاجرةٍ ستسبقُ ذلك الموعد؟

وفي غضبي أبارزها بمكرِ الفكرِ والمنطق

وألعنُ فلسفاتِ الحبِّ

ألعنُ مُرجئاتِ الوعدِ

ألعنُ نعرةَ التّسويفِ

والوسواسِ

والصّدرَ الذي يقسو

عليها قبل أن يُشفِق

وينجو مرّةً أخرى

ومن طعناتِنا الموعد

وترضيهِ التي تأتي

وترضيني التي تكذِب

تموءُ أصابعي جوعى

وجوعى لي أصابعُك

وها أنتِ

بريئات خطاياكِ

وإنساني هو المذنِب.

السّادسةُ صباحًا

حين تخاصَمنا يا صغيرتي

شيءٌ ما أثبتَه هذا الجفاء

أنّكِ أقرب من عاطفتي لي

أنّك أعذبُ من بيانو يتنقلُ بين المقطوعاتِ

كرحَّالٍ مخمور

يتصبّبُ أنفاسًا في قاعات فارغةٍ إلا منّا

حين تخاصمنا أسكنتُ هروبي في جيبي

ووضعتُ على قدمي.. قدمي

وجلست أدخّن

حينما تخاصمَنا فوَّضتكِ أن توقِّعي عنّي

أن تحلّلي دمي لتتأكّدي خلوّه من النّساء

أن تتيقّني أني لا أعاقرُ الشّفاهَ الصّغيرة

لا أعاقرُ احتساءَ العطر على أجسادِهن الممتلئةِ

أنا أعاقرُك أنتِ

أنتظر اللحظةَ حين تعودين بتنورتك الزّرقاء

حين تعدِّين لنا فنجانَ القهوةِ

بأناةِ الغاضبةِ المفتعلة

لا يعني ذلك شيئا... لكن يعنيني

حين تخاصمنا كلُّ الأشياء ال لا تعنيني

صارت تعنيني

الوجه الضّاحك في صندوق الوارد

الوجه الغاضب

الغيرةُ حين تلقّين الغيرةَ بالصّوت الواثق

حين تخاصمنا

لم أنجح أبدًا أن أتخاصمَ مع قلبي

فالشّيء ال لا يعنيني حين تخاصمنا أصبح يعنيني.

السّادسةُ صباحًا

حين تشربُ عيناي وجهَكِ الفائضَ بالفجرِ

أُمطِرُ حروفًا

وأستبدُّ بالشّوقِ كي ينقادَ لي الوصفُ

وأعجنُ مجازي في ثنايا صوتك

حين أتحدثُ إليكِ

تؤمنُ بي نفسي

تحملُني على كتفيها كي أجمعَ من قوامكِ الفواصلَ

وعلاماتِ التّعجبِ

والأقواسَ التي تؤطّرُنا معًا

حين أذبحُ وقتي بحضوركِ

لا تعاتبني الدّقيقةُ عن نحرها

ولا السّاعةُ على إراقةِ دمها

هي من تشاركني الاحتفالَ للنّيلِ من عطرك

ومن تشاركني التّصفيقَ

إن تناسيتُ غضبَ القبيلةِ من العناقِ الطّويل

كلُّ ما أفهمه هو معاني ابتسامتك

وأمَّيةُ نهديك

ورعشةُ الحيرةِ بين عنادك الدّائم والجنون

كلُّ ما أحتاجه هو أن تتقبّلي غرابتي

أن تتقبلي الضّبابية التي أحياها

أن لا صفةَ لي في هذا اللقاء

أن لا مبررَ لي للغموض الذي صرتُ فيه

هكذا يبدو الشعرُ والشّاعرُ كلما واجها سؤالا واضحًا

وهكذا يكونان حينما لا يجدان تبريرا للشّغف

حينما لا يفرِّقان بين خارطة جسدك

وخارطة المدينة الفاضلة.

السّادسةُ صباحًا

الزّهوٌّ ينتشلُ الضّحايا من قبورٍ

فوق سطح الأرض تمشي

الزّهوُ يجلسُ في توابيتِ العرائسِ

كي يغنّي الحاضرون

سيباشر الكورالُ في التّحضير من أجل الجنازة

كلّ عزفٍ في تجاويفِ المنايا مِطرِبٌ

لكنَّ عازفَنا تأخّر

سِر وحيدًا

إنَّ وهجَ الرّاقصاتِ على جراحِك لن يدوم

تهتزُّ كالممسوسِ مِن خطواتِها

قد فارقتكَ

لأجلِ من؟

مِن أجلِ من؟

الحفلُ مَن سيدسُّ أفعى الذّكرياتِ بخافقِك

والحفلُ مَن سيريكَ واديكَ السّحيقَ بداخلِك

ويجيبُ عنكَ إذا سُئلتَ

وإن سألتَ

فمَن أحبَّت منتهاكَ وأوَّلَك

تلكَ التي نزعتكَ منكَ

ولم تُعِدكَ إليكَ يومًا ثمَّ بتَّ تحوَّلَك

ببزوغِ زينتِها سترقصُ للحضور

كلُّ النّوافذِ خاشعاتٌ فيكَ

ترجوها السّتائرُ أن تجوبَ الشّمسَ

والغاباتِ

بالعصفِ الذي فيها وآلافِ الكسور

والموحشاتُ نعوشُ مَن يرضى بها

وخطاكَ ثابتةُ الخطى

في وحلِ ماضيكَ الأسيفِ على قشور

طاحونةً بمكانها لا زلتَ أنتَ

ولم تزل

طاحونةً بهباءِ ماضيها تدور.

السّادسةُ صباحًا

ينقصني وطنٌ لا يأكلُ إن جاعَ أساريرَ البسطاء

لا يمضُغُ أكبادَ الفقراء

لا يشربُ دمعَ العتَّالين

لا يشربُ عرقَ الخبّازين

لا يهربُ من قسوتِه الطّين

لا يرفعُ في وجهِ الطّفلِ العابثِ كرتًا أحمر

لا ينصبُ فخًّا للعشّاق

ينقصني وطنٌ لا يتعاظم مثلَ الغولِ أو العنقاء

لا يخرجُ في عتمِ الليلِ ليبحثَ عن عاهرةٍ تزني

الغربةُ يا وطني عند مُواءِ النّخلِ

بلا أرضٍ يسكنُها تزني

الغربُةُ يا وطني لا تعرفُ في هذا الزّمنِ سريرَ الأمِّ

النّاسُ هنا من أشقى النّاس

يتناوبُ فيهم وَسواسٌ بعد الوَسواس

لا أنتَ لديهم

لا أنتَ الموجودُ ولا الغائب

لا أنتَ الصّادقُ كي يرجوه ولا الكاذب

لا أنتَ الرّاحلُ إن رحلوا

لا أنتَ الجالسُ إن جلسوا

وتحسُّ ولا ندركُ شيئًا مِن منكَ

ومِن ذاك الإحساس

المركبُ يا وطني نصفُ شراعٍ

والنّصفُ الآخرُ أطلالٌ في عمقِ البحر

أينَ اليابسةُ؟

فصحرائي

صحراءُ القومِ ال تسكنُنا تشتاقُ البرّ

الموجُ الطيّبُ يا وطني

قدَ غادرَ مِن يدِنا

تدري؟!

وغزت مركبنَا مذ غادرَ أمواجُ الشّر

ينقصني وطنٌ يجلسُ في المقهى قربي

يستمعُ معي لشريطِ الأخبار الكاذب

يحتمل غبائي حين أحلّلُ آراءَ سياستنا الفظّة

يحتمل النّكتةَ حين تعضّ تواريخَ الزّعماء

لا أخشى أن يكتبَ تقريرًا عنّي

أن يبعَثَ زوّارَ الفجرِ إلى بيتي

أن يجمعَ ذاكرتي

جسدي

أن يجمعَ آلامي منهُ

فلا نغدو إلّا أشياء

أحتاجُ لوطنٍ يُمسك بيديَّ لأجتازَ الشّارع

يُعطيني مصروفي اليومي

لا يصرخُ إن بللتُ ثيابي أو يغضب

لا يرفع سبّابتَه إن أهملتُ دروسي

لا أبحثُ في قلبي عنه

لا أبحثُ في لغتي عنه

لا أشعرُ فيهِ بأنّي القاتلُ والمقتول

لا أرحلُ عنهُ

ولا يرحلُ إن شاءَ بدوني

لا زلتُ أترجمُ للأشجار أنينَ الأغصان المكسورة

لا زلتُ أفسر للنّيرانِ نشيجَ الأوراقِ المهجورة

لا زلت أكوِّرُ واوَ العطفِ

لتبدو نهدا عربيّا

لا زلتُ أحثّ السّينَ

لتجعلَ منّي بعدِ الضّعفِ عصيّا

ووحدي مَن يحملُ فاصلةً

ووحدي مَن يعتمرُ الهمزةَ قبّعةً

ووحدي من يطلبُ في المقهى كأسَ بلاغة

فنجانَ بديعٍ وبيانٍ

كي أصبحَ بعد الهذيان اليوميِّ مجردَ حالة.

السّادسةُ صباحًا

إيايَّ أنتَ

وظِلٌّ من يمشي وحيدًا

رافضًا عصرَ اشتعالِ النّورِ في رأسِ السّنين

عكّازتان وقد هرِمنا

ومُجزّآتٌ هذه الأنفاسُ عندَ لُهاثنا

بهشاشةِ الأقدامِ فينا والأنين

لستَ في ذاك الطّريق

وصحتُ: ما جدوى الحنين؟

أجبتَ: كي نمضي إليه بنيَّةٍ مُتعثّرة

أترى سيعرفنا الحنينُ؟

أجبتَ: والأرضُ التي ما أنجبتنا صدفةً

فلنمشِ عكسَ القادمينَ لحتفنا

ووضعتَ قبعةً وقمحًا

والخواطرَ والأماني في الحقائب

وحملتُ نعلكَ للقطارِ وتذكرَة

وجهُ المسافرِ للنّدى وجهُ النّدى

والأرضُ من سارت بعيدًا

لا خطانا المُتعبة

في المقعدين إلى المحالِ

إلى اقتناص العمرِ من فكِّ الألم

وشوشتُ أو وشوشتَني: تبًا لهم

سرقوا الحقيبةَ والقلم

قد قلتُ: بل ظلَّت على ذاك الرّصيف

بل قلتَ: كلا، قد تركنا خلفَ من ظلَّوا الخريف

المقعدُ الخلفيّ مأهولٌ فحانت لفتةٌ

أهو الخريفُ؟

نعم، وفي كفيهِ قبعةٌ وقمحٌ

والخواطر والأماني

ما زلتُ أشربُ مِن كؤوسكِ ثمَّ بالسّلوى أُنَاغي

هلّا شربتَ معي؟

هلّا شربتَ ليثملَ التّعبُ الذي ما جاءَ بعد؟

ما زلتُ أشربُ

لا قرارَ لكأسنا

فاشرب وبادلني نصيبَك من فراغي

وادعُ السّراب

كم لبثنا؟

ساعةً... يومًا... دقيقة؟

إنّه العمرُ الذي لم يحصِه ظنِّي

وظنُّك والحقيقة

وهي الثّواني العابراتُ على جسورِ الوقتِ

نحسبُها عدوّتَنا

ونأخذُها صديقة

فانهض لكأسكَ واستدر

وقعُ اللحونِ وليلُنا يُشجي الطّقوس

أدري بأنّكَ واثقٌ أنَّا سنجتازُ المسافةَ... إنَّما

كأسٌ أخيرةٌ قد تزيحُ بك العبوس

كأسٌ أخيرةٌ قد تزيحُ من الرّوايةِ

فصلَها الدّامي... ونحن

فلنكسر المنفى... نعم

هل نستجيرُ بكأس حنظلنا؟

نعم...

غوغاءُ آثارِ الحياةِ وراءَنا

وأمامَنا

وأمامَ رحلتِنا الألم

ورسمتَ فوق الرّملِ شيئا

نافذاتٍ... كوَّةَ الأملِ التي بدأت تضيق

ها قد مضينا خائِفَينِ وربّما

قد لاحقَت سككَ القطارِ الذّاهباتِ بنا الطّريق

ورسمتَ متَّسعًا لنا

ورسمتُ مُفترضاتِنا

لكنَّ لوحتَنا الأخيرةَ لم تكن إلا كهوفًا

مُظلماتٍ في مضيق.

السّادسةُ صباحًا

دقيقةٌ لا تكفيني

أحتاجُ دقيقتين فقط

الطّبيبُ لخياطةِ الجرح يحتاجُ دقيقتين

القصيدةُ لترتدي ثيابَها دقيقتين

السّفينةُ لكي تتحرّك

القطارُ لكي يتحطّم

الورقةُ لكي تتمزّق

الصّرخةُ لتفقدَ صداها... دقيقتين

أحتاجُ دقيقتين فقط

أعلّلُ بها أسبابَ الرّحيل

أفتّشُ عن مخرجٍ للبقاء

أتذكّر بها اللقاءَ الأوّل

الجولةَ الأولى

الخُدعةَ التي قادتنا لنحرِ السّاعات المتأخّرة

لكي أمسكَ يديك سهوًا

وأحتكَّ بقدميكِ سهوًا

وأتسلّلَ لمقعدَك الضّيقِ فاغرًا دهشتي

كي أدلُقَ عليك كوبَ الماء صدفةً

كي أغارَ من الجالسِ في مقعدٍ بعيدٍ دونما اكتراث

كي أختلقَ حادثةً

وأزوّرَ حادثةً

وأفتعلَ نقاشًا عن أزمةِ الكواكبِ في مداراتها

لعلَّ هناك أزمةً لا نعرفُها

نقاشًا عن معادلاتِ الخفقَةِ والجفوة

هل حدّثتُك أن حساباتِ العشقِ لا تحتاجُ لآلةٍ حاسبة؟

أن حجمَ اختلافنا لا يحتاجُ لمبرمج عصبيّ؟

هل أخبرتك مسبقًا

أن الورمَ الخبيثَ في الفكر لا يحتاج لِمشرط الطّبيب؟

ولا للعلاجات الكيماويّة؟

كثيرةٌ هي الأشياءُ التي تحتاجُ للدّقائق فقط

للماضي فقط

للابتسامة والجنون فقط

لأن نعودَ إلينا

كما نحن فقط

أحتاجُ دقيقتين عابرتينِ

كي أكونَ صادقًا لمرّة واحدة

أفرِّغَ فيها أكاذيبي السّابقة

دقيقتين من الصّمتِ

والكبرياء

من الدّمعة ال بينَ صادقةٍ

وبينَ كاذبةٍ

وبين شعورٍ جديد

تخيّلي أن تنجبَ الدّقيقتان عمرًا

طريقًا تحُفّه البداياتُ فقط

هواءً جديدًا

تخيلي أن تنجبَ رسالةً نبعثُها لأوطان الحروبِ

حمامةً تحطُّ على فُوّهاتِ البنادق

سنابلَ تطلُعُ فوق البيوت الحزينة

تخيّلي أن تُنجبَ بحرًا عميقًا

يضخُّ مياهًا جديدة

ضفافًا جديدة

غدًا... للطّفولة

فهذي الحياةُ دقيقةُ موتٍ

وأخرى ولادة.

السّادسةُ صباحًا

يسيرُ السّلَمون مع التّيار

يزدري الماءَ

يطرقُ أبوابَ اليابسةِ

ويشتمُ باقي الأسماك

هناك صغيرٌ لم يبلُغ الحلمَ بعد

لم يبتلع الطُعمَ بعد

يعتقدُ بأنّ النهرَ عدوٌ للقرشِ

وللدّببة

أنّ النّهرَ هو البيتُ الآمن للأجيالِ القادمةِ إليه

لكنَّ النّهرَ صديقُ الصّنارةِ... والشّبكة

وحليفٌ لا يخلفُ وعدًا مع أعتى الحيتانِ

وأقسى الدّببة

النّهرُ هو السّمسارُ الأكثرُ تجربةً

بشراءِ وبيعِ الأصداف

والأكثرُ بغضًا للأسلاف

لا حياةَ في النّهر المكتظ بالكائنات

لا دوائرَ في دوامته

تفقسُ البيوضُ بشكل هستيريّ

تحتفلُ الضّفادعُ بعشاءِ رديء الطّعم بشكل هستيريّ

وتمتنعُ الضّفتان عن الوقوف على جانبيهِ

فيستبدلها بحجارةٍ فولاذيّة

هناك موّال يجلس وحيدا على تلةٍ من طحالب

لا يكرّرُ الكوبليه مرّتين

ولا يثيرُ السّلمون ليرقص

"إلى المحيط"

هذا مطلعُ الأغنيةِ بعد الموّال

الجمعُ يردّد هذا المطلع

الصّغيرُ الذي لم يعد صغيرًا

زوجته التي أنجبت بعد مخاض عسير ذكرًا

يحملُ كلَّ صفاتِ أبيه

أولادُ عمومتِه... جيرانُه

الكلُّ يردّد هذا المقطع

ويسير الكلُّ مع التّيار

"إلى المحيط"

يتساءلُ من لا يملكُ عقلا: والنّهر؟

يُطعنُ في الظّهر

ويلَوحُ محيطٌ أكبرُ من كلِّ الأسماكِ

وأصغرُ من قبر

ويسيرُ الكلّ مع التّيار

هذه نبوءةُ الأوغاد

حِكمةُ الرّاياتِ البيضاء

وتجَّارِ الحقائب السّوداء

والموائدِ المستديرة

هذه نبوءةُ الهدوءِ الذي يمقتُ العاصفة

ويكره المرتفع

مَطلعُ ما قالهُ منجّمٌ عن السّلمون

وكرّره التّيارُ كثيرًا كي يصبحَ عادة

كي يصبحَ مُعتقدًا في الموروثات

يشتعلُ النّهرُ أخيرًا

يشتعلُ التّيار

خرجَ الموتى للنّور الأسودِ أفواجًا

في المستنقعِ الأوّلِ حربٌ

والثّاني أبواق نفاق

والثّالث مَن سمّيَ بمحيط

والسّلمون مازال يغنّي

والفوجُ القادمُ منه على الميعاد

شربَ الكأسَ الأول من نفطِ الأكباد

شرب الثّاني

عربدَ في الحانةِ

حطَّم مرايا وأثاثَ المستنقعِ

طرحَ أراجيزَ الأسلافِ

وقذف المطلعَ في النّسيان

وأراد العودةَ

وأرادَ بأن يسترجعَ منزلَه

وباحةَ منزلِهِ الخلفيّةِ

وأراد بأن يجلسَ تحت الشّلال

وأرادَ وظلَّ يريدُ

ولم يسبح يومًا ضدَّ التّيار.

السّادسةُ صباحًا

للشّوقِ رائحةُ الخطايا

لم يَدُم عطرُ اللقاءِ على ذراعي

حينما يومًا توَسدّتِ الذّراعَ... فكان يومي

كان جزءًا من طقوسِ الرّقص ضدّ الرّيحِ

ضدّ الموجِ سيّدتي

وكنَّا نقرأ الآتي

نحاولُ أن يكونَ الصّدقُ أمرًا لا يُفرّقنا

نحاولُ أن يلملمَنا

فكنتِ بوجهكِ الصّادق

وكنتُ بوجهيَ الآبِق

وشاءَ الشّكُّ أن يُذكي

رمادَ شجارِنا السّابق

فمُزِّقنا... لأنّ عذابَنا أكبر

لأنّ الصّدفةَ الحُبلى

بأخرى لم تكن تأتي

مخافةَ أنّنا منها

ومِن آلائِها نَحذرْ

وكان الرّقصُ مُنسجمًا

على الآلام مُنسجمًا

فلا تبدو مُعاتِبةً

ولا تبدو مُهادِنةً

ولم ترضَ كما يبدو ولم تَندم

فخذ نبضًا بحجمِ حنينِها

خذها

ومِن يُتمَيكُمَا بَدِّد... شعورَ اليُتمِ والمَيتم

لأن البوحَ لا يكفي

ضعي كفًّا على قلبي... لكي يهدأ

لقد حضَرتْ نهايتُه

بما حَمَلَت نهايتُهُ

مِن الإخفاقِ

مِن ولَهٍ

ومرَّت دون أن يبدأ

أحبّيني... لأجلِ زوارقٍ حيرى

تفتّشُ عن بقايانا

لأجلِ عناقِنا المنقوصِ

يومًا من حنايانا

أحبّيني... فقد حنَّطتُ أوردتي

وكفَّنتُ الذي يبدو وقد ودَّعتُني حيًّا

فبعَدكَ لم يكن شيئًا

وقبلَكِ لم يكن شيّا.

السّادسةُ صباحًا

أعترفُ أمامَ الملأِ بأنّي شرّير

رجلٌ شرّير

فجوازي يحملُ خَتمًا

خُطَّت تحتَ الخَتمِ

وفي أدنى الصّورةِ تحديدًا

إذ أبدو فيها مبتسمًا

كلمةُ شرّير

مكتوبٌ في هُويّتي

وفي شهادةِ الميلاد بأنّني شرّير

سَيكولوجيةُ النّزعةِ الأولى كما يقولُ طبيبي

استساغَت السيرَ عكسَ التّيار

أحدُ أجدادي على ما يبدو كانَ قاتلًا مُحترفًا

ورغمَ قِصري

وسُمنتي

وصلعتي التي ألمِّعُها كلَّ يومٍ بطريقةِ البسطاءِ

إلا أنّني شرّير

أحدُ السّحرةِ قال: يسكنُ فيه جنيٌّ آبق

وإحدى المبرُوكاتِ بعدَ أن مسَّت جبهتي انتفضت

وتثاءبت بغزارةٍ

وقالت لأبي: اسقهِ مِن زيتِ الخِروَعِ هذا

وادهنه بزيتِ الزّيتونِ

وبخِّره بدخانِ الأعشابِ السهليّةِ إنِ احمرَّت عيناه

وقيِّده إذا رفسَت قدماه مقاولَ قريتِنا

فابنك هذا يا ولدي ولدٌ شرّير

كلُّ ما أقولهُ مُذ ولَدتني أمي

أقولهُ لأنّني شرّير

لم أستطع أن أحفظَ معلَّقةَ ابن كُلثومٍ..

في الصّفّ الخامس

لم أحفظ في الصّفِ السّابعِ الإلياذة

لم أقرأ حتى الآن ملحمةَ جِلجامش

أستاذُ التّاريخ أصرَّ بأن أفهمَ..

كيفَيةَ تقطيعِ الجسدِ الواحدِ..

في دكّان القصَّاب لقطعٍ حيَّة

لكنّي لم أفهم هذا الدّرس

شرحَ مرارًا مُبرّراتِ الحرب العالميّة..

الأولى والثّانية... كأن حدثَت في الأمس

مبرّراتِ نكبة البرامكة لانتفاء الوطنيّة

الحُكمِ بالأشغال الشّاقّةِ على عبد الحميد الكاتبِ

لكنّي لم أفهم مسوِّغاتِ هذه الطّيبةِ الهمجيّة

أعترفُ أمامَ الملأ بأني أنتمي للجموع

لقريتي

لحارتي

لمدرِّس التّاريخ

لكلِّ من يمرّ في حياتي

ومن يفرُّ إن رآني

فدائمًا أبادلُ ابتسامتي الصّغيرَ والكبير

لكنّني شرّير

ملتزمٌ بالتّجيباتِ الخمسِ خلفَ الإمام

متناهٍ بالتّأمين خلفَ الإمام

أصوم كلَّ نافلة

أعتمرُ مرّتين في السّنة

أميطُ عن سوابلِ الأنامِ كلَّ حصوةٍ

ومُعثِرة

لكنّني شرّير

أتصدَّقُ بربعِ راتبي لليتامى..

كلَّ شهرٍ والأرامل

أتطوَّعُ لزيارةِ دار المسنّين مرّتين في الشّهر

أوّلُ مَن يحضُرُ كلَّ سنة لتنظيفِ الغاباتِ

وآخرُ من يغادر

لكنّني شرّير

أعترفُ بأنّي لم أدعُ يومًا امرأةً للعشاء

وما عرفتُ غيرَ زوجتي

ومذ زفَّت إليّ أعيشُ في زِنزانتي

فلا لثمتُ جيدَها

وما مسستُ نهدَها

لكنّها تقولُ أنَّ نهدَها البريءَ والجميلَ مستدير

سيرتي الذّاتيّةُ

كسيرةِ الأشرار في بلادنا فضحية مدوّية

أصحو تمام السّادسة

أصطفُّ كالنّعامِ في انتظار الحافلة

يسبُّني السّائقُ

والرّاكبُ

والمديرُ في العمل

يسبُّني المراجعُ الأوّل

والعاشرُ

وعاملُ المَصعدِ

وتاجرُ الخضارِ

والطّبيبُ الذي يتاجرُ كالجزّارِ في العظامِ

لأنّني شرّير

والطّيّبون لا أحبّهم

والطّيّبون ينبذُون عادةً يا سادتي الشّرّير

والطّيّبون في أروقةِ الأممِ المتحدّةِ يرفضونَ..

أن يجالسوا شرّيرا

لا يقبلونَ الجلوسَ على طاولةِ الشَّطْرَنْجِ مع شرّير

إقامة المباريات الودِّيةِ مع شرّير

الطّيّبون كمهندسي بلفور

كمُطلقي عياراتِ الفيتو على جسدِ الضعفاء

كزارعي الألغامِ في المديحِ والثّناء

يرفضون أن يعيشَ بينهم شرّير

أن يتركوه وشأنَه

أن يدعوه مُتجذِّرًا في موطنِه

أن ينزلوا عن أكتافهِ

أن يسمحوا له بانتقاءِ موتهِ

وقبرهِ كما يشاء

لذا اتخذتُ موقفًا من كلِّ هؤلاءِ سادتي

لأنّني شرّير.

السّادسةُ صباحًا

لا أجدُ سببًا لحزني صباح هذا اليوم

لكنّني حزين

لا أجد ذريعةً لإشعال سيجارتي من أخرى

مرّاتٍ ومرّات

لكنّني أفعل

بدافع العشوائيّة أفعل

بدافع فوضاي العبثيّةِ أفعل

وبلا سببٍ واضح أفعل

لا أجد مبررًا لتصفحِّ كتابٍ التهمتهُ عيناي ألف مرّة

لسماعِ الأغنية المكرّرة ذاتها

لجلوسي بعيدًا عنّي في مكان آخر

لا أجد متّسعًا من الفراغ وسط وقتي الفارغ

ولا وقتًا للحديث مع حبيبتي التي سئمت من غيابي

تتهمُني بالخيانة... بخداعِها

بانشغالي بأخرى

كيف لي؟

أنا منذ الصّباح لم أنشغل حتى بنفسي

تتوعّدني بالهجر

تقذف ألف شتيمةٍ مضبوطةِ الإيقاع بصندوق الرّسائل

تغارُ عليَّ ممن يثرثرن عنّي بالنّميمة

تحذفُ صداقتي وتعيدها بعد دقائق

لا أجدُ الحروفَ التي قد تخدِّرُ مشاعرها قليلًا

ولا الأكاذيبَ التي تعمل عملَ حبوب المنوِّم لغضبها

أقول لها: استيقظتُ حزينًا هذا الصّباح

نيسانُ مَن يتحمّل وزرَ ذنوبي

وزرَ غيابي

وزرَ الألم القابع في روحي

نيسانُ وحده من يفتحُ ذاكرتي

وينبِّشُ في الصّورِ التّالفةِ عن الأوجاع

هل أخبرتُك يومًا عن ظُلمِ الأيّام بهذا الشهر؟

قد مات به من ماتَ

فلم ألقَ من ماتَ بهِ يومًا

قد قصَّ جناحيّ

وقلَّمَ أغصاني المورقةَ

وخلَّفنِي وتدًا في الأرض

نيسانُ _يا أجملَّ حبِّ في نيسانَ_

يعيدُ إليَّ الذّاكرةَ المنسيةَ كي أحزنَ... ولذا أحزن

فالبجعُ النافضُ أجنحةً فوق الأسوارِ

أمامَ نوافذِ من لا تفتحُ من سنتينِ نوافذَها لأراها

كالقططِ تمامًا...

لا تبحثُ عن شيءٍ تأكلُهُ

وحمامٌ يختارُ رفوفَ المكتبةِ ليبني عشّه

إنّي لا أحلمُ

لكنِّي أتعجّب من هذا الواقعِ حين أراهُ بلا عينين

هل يأتي وجهُ البجعِ كئيبًا حين يفارقُ شاطئَه؟

هل أكلت قططُ الحارةِ علبَ السّردين المنتهية؟

هل أغرَتْ كتبي طيرًا بريًّا جاء ليقرأ..

ما نسيتهُ الصّفحاتُ من الأشعار؟

نيسانٌ..هذا الشّهرُ القادمُ في سرِّيةِ ما يحملُ من أخبار

يجعلُني من نافذتي أنظر نحو التلّات المُنغمسةِ ..

بالأحجارِ المعمورة

ويمدُّ يديهِ إلى حاسوبي

يكتبُ عنّي... ويؤلّفُ عنّي

ويصفّقُ حين أقولُ له: أبدعت.

السّادسةُ صباحًا

لم يَكُنْ يومَ التقيتـُكِ

حينما عَلّلتُ أنَّ لقاءَنا صُدفة

قدْ كانَ صُدفة

غيرَ أني كـلّما صَدّقتِني

صَدّقتُ أنَّ لقاءَنا صُدفة

ومضيتُ أعزّزُ ذاكرةً

قد مُنِحتْ مِن نسيانِكِ فرصة

وجررتُ القصّةَ بالقصّة

جوَّدتُ الوهمَ

رتَّلتُ الوَهمَ

ونسجتُ خيالًا لا أكثر

وأويتُ بنفسي بعدَ شتاتٍ في الدّنيا

نحو الحريَّة

حاولتُ بأنْ أُقنِعَ نفسي

أنَّي مرئيٌّ في الدّنيا

مرصودٌ مِن أحداقِ الغيرِ

أحداقٍ تملكُ ألسنةً

تتكلّمُ لغةً أعرفُها

ونسيتُ بأنّي مِن وطَنٍ

يحملُ أوجاعَ البشريّة

أعترفُ بأنّي قد راقبتُكِ أعوامًا

ورميتُ جوازي وخيالي

اسمي

عنواني

كَذِبٌ يا سيّدتي... كذبٌ

وكذلكَ أعشقُ آثامي

ما دُمتِ ختامَ الآثامِ

اسمي في الدفترِ "منصورٌ"

وأبي "غالب"

لكني أمتَصُّ مرارةَ تلكَ الأنصاب

أورثني جدّي "حطَّتَه"

أورثني وطنا مُغتَصَبًا

وخياما ملأى بالأوتاد

منصورٌ اسمي

لكنّي دومًا مهزوم

مُنتقِمٌ شغفي حينَ أعدُّ خساراتي

وأعدُّ خدوشي... وشروخي

مِن شغفِ عنادي المتهالكِ

هذا المزعوم

مِن شغفِ الجسدِ المهموم

أُطرَدُ مني رغمًا عنّي

إن قفز خيالي فوقَ الغيمِ وداعب نيزك

تـُوصَدُ في وجهي بَسَماتي

تُغلقُ أبوابْ

عُنواني عُنوانُ الألقابْ

عُنواني سِردابٌ في التّاريخِ

في اللغةِ الفصحى

في الشّرقِ القابعِ في سرداب

عنواني مذ بعثُ خيامي

مذ بعثُ النّوقَ وصحرائي

مذ بعثُ لساني يا سيدتي

تحتَ سكاكينِ القصّاب.

السّادسةُ صباحًا

لماذا دمشق؟

لماذا انتبذتِ _وقد كنتِ فينا_ المكانَ القصيّ؟

لماذا يعودُ المهلهلُ غصبًا

بثوب النّبيّ؟

لماذا أخفتِ الحَسَاسينَ منك؟

لماذا طرحتِ النّياشينَ عنك؟

لماذا جعلتِ الشّواهدَ عقدًا؟

وبِعتِ القرنفلَ

والياسمين؟

وبِعتِ النّوارسَ

والعاشقين؟

وباقي الحليّ

لماذا دمشق؟

لماذا قتلتِ المُدَمشقَ صبرًا

وقد قال ما قاله من وجع؟

أما كانَ للرّوحِ أن تستكينَ

بُعيدَ الموالدِ والدّروشاتِ

كما مِن بَعيدٍ

وبعدَ الرّحيلِ الطّويلِ إليكِ... استكانَ البجع

وأنتِ الوجع

وأنتِ الأنينُ الذي كلَّما

بثثناهُ من صدرنا زفرةً

نفثناهُ من جوفنا حسرةً

نفيناهُ عنّا... إلينا رجَع

دمشقٌ... وجرحي

وجرحي بريءٌ

ظنينٌ

مُدان

وناحَ الصّهيلُ ال تراءى وحيدًا

رأيناه فجرًا

وعصرًا

وليلًا

وجدناهُ لكن فقدنا الحصان

جراحي تعاني

ومثلي _على شفتيَّ_ المَعاني

جراحٌ تحاكي جراحَ المليكةِ والصّولجان

شقاءَ البداوةِ في شمعدان

عذاباتِ حاراتِها مذ تناسى

نوافيرَها الباكياتِ المكان

دمشقٌ... وجرحي

رُواةٌ تحيكُ المراثي الكثيرة

أسِفنَا كثيرًا

بكينا كثيرًا

ذرفنا التّرابَ الذي في الحنايا

فكنَّاه حقلًا

وكنَّاه قمحًا

وكنَّا شعيرَه

بكينا كثيرًا

ففي كلِّ يومٍ

يموتُ الهواءُ

ويُرثى الرّثاءُ

وفي كلِّ يومٍ كبلقيسَ تهوي لدينا أميرة.

السّادسةُ صباحًا

اشتريت وردتينِ من متاجرِ الخمور

ووردتينِ من متاجرِ الملابسِ القديمة

خطفتُ قبلتينِ من حبيبتي

ودونَ أن تحسَّ بي

سرقتُ ضمَّتين

ورحتُ في تأمّل الحياةِ والممَات

تأمّلِ الوداعِ والعناق

تأمُّلِ الإنسانِ حينما مِن نفسهِ يُراق

من حزنِه يُراق

مِن بين صخرهِ المحميِّ في قلاعهِ يُراق

وعندما بدأتُ

أو لربّما انتهيتْ

نسيتُ في متاجرِ الخمورِ حينما استفقتُ وردتين

وفي متاجرِ الملابس القديمةِ اثنتين

لأنّني ارتديتُ معطفي القديمَ بعدَ أن أفقتْ

لأنّني لا أشبهُ المرئيَّ من ملامحي

ولا الذي يرونَه أمامَهم

ولا الذي في كلِّه أتيتْ

نسيتُ يا حبيبتي

لأنّني أطفأتُ مِن مواجعي بريقي

لأنَّ لم يكن سواي لي صديقي

نسيتُ غير أنّني خطفتُ قبلتين

سرقتُ ضمَّتين

وسرتُ في طريقي.

السّادسةُ صباحًا

في البابِ سيّدتي أنا

حمَّلتُ ما استصلحتُ منّي

ما تبقَّى من سنيني

مِن كثيري... فوق ظهري

ثم رافقتُ الرّحيلَ

وأينما ذهَبَت مشيئتُهُ ذهبْت

أُفضي إليكِ

ولستُ أعرفُ ما حطَمتُ بكِ

وما أبقيتُ فيكِ... أو أمَت

تتكسّرُ الأشياءُ أحيانًا

لتشبهَنا فَمَا

كنتُ الذي بجميعِه جمعًا ولم

تتشابهُ الأشياءُ مع مَن قد كَسَرت

في الباب سيّدتي أنا

أطلالُهم لاحَت أمامي في شقوقِ البابِ فازدادوا

غيابًا في الغياب

مَرّوا بِنا

كانوا يبيعونَ التّعاسةَ في حقائبِهم

ويقتلعونَ شوكَ اللائذين بهم

ويحنِّطونَ هزيمةَ التّرحالِ فيهم بالتّراب

مَرّوا بِنا

خيماتُهم قربَ الصّفيحِ

عدوةٌ للرّيحِ

والمطرِ الغزيرِ

ومُتعَبَاتُ جباهِهم يروي حكاياها السّفر

لم يترك الجاني دليلًا خلفَه

قد حرَّقَ الأثوابَ

والمحرابَ

والأنعامَ والأسوارَ والإنسانَ فيها

والشّجر

لم يترك الجاني «برملتِهم» أثر

كانوا على ذاتِ الطّريق ولا ترى

أبوابُنا ما كان يحدثُ في الطّريق

حَملوا بنزفِ وريدهِم قمحاتِهم

محراثَهم

آبارَهم

حملوا بنزفِ وريدهم أملًا وضيق

المتعبونَ... نعم... يذرُّونَ المواجعَ بالغناء

قد شجَّروا جدرانَهم

لاكوا التّصَحُّرَ في أويقاتِ الصّفاء

هم لاجئونَ إلى ديارٍ

من ديارٍ

كان شخصُ الموتِ فيها

يطرقُ الأبوابَ ليلًا

مُرهِقًا للأصفياء

كانَ شخصُ الموتِ فيها

يطرقُ الأبوابَ فَجرًا

باحِثًا عن أنقِياء

مَرّوا بنا كانت أصالتُهم

بوقتِ الزَّيفِ تَعْصِفُ كالحقيقةِ

في محطّاتِ الهُراء

جلسَت مقاعدُهم على ظهري

وأرخَت نفسها

جسَّت عظامي جيدًا

جسَّت ذبولي جيدًا

أمَّت عذابي بعدمَا خشَع العذَاب

يجثو عليَّ العتمُ

يحدثُ داخلي سطوٌ وقمعٌ واستلاب وانتهاب

الضّوءُ يسكنُ في المكان

والنّورُ أيضًا

أم ترى لا يسكنان؟

صوتُ مَن هذا ال يجيءُ وكلُّ ما يجري أمامَكَ

كانَ في ماضيكَ مسكونًا

وليسَ الآن!

في الباب سيّدتي أنا

والبابُ أنساهُ الزّمانُ اللاجئينَ

ومَن أرادوا هجرَه

واللاجئات

يومًا أمامي كان يجلسُ مَن عَرفت إذا اجتمعنا

ما على هذا اجتمعنا

ذكرياتٌ قد أماتت ذكريات

لا تغنِّ

قلتُ للمكلومِ منّي... لا تغنِّ

قلتُ لو يبكي ستبكي

ثم غنَّى

كنتُ معناهم تمامًا

كنتُ إياهم وكانوا _حينَ أفقدُ كلَّ ما أعنيهِ_ معنى

فلتَنُحْ يا أنتَ ما زالت

يدي الشّولاءُ عاجزةً

عن الإتيان باليمنى

في الباب سيّدتي أنا

اجلسْ بعيدًا

أعطني بعضَ الدّقائقِ كي أودّعَ مَن أحبّوني هنا

تلك الزّوايا الدّائرية تأكلُ الأحجارَ في صمتِ اللحون

تلك النّوافذُ تسعلُ الآلام في خجل العذارى

ثم تغلقُ نفسَها

لا شيءَ في هذا المكانِ

ولا أنا

هي غربةُ الدّولابِ

جفواتُ الأثاثِ

الهاتفِ

البروازِ

أشلاءُ الملاعقِ والصّحون

في الباب سيّدتي أنا

سيّارةُ الإسعاف مرّت من أمامي

أو أمامَكِ

كنتُ أو كنَّا قديما مُشفقينَ على العِبارَة

كان الطّبيب هو السّريرُ

هو الدّواءُ

هو الوباءُ

هو المغسِّلُ والمكفِّنُ

والإمامُ على الجَنازةِ

والمشيّعُ والخطيبُ

ومَن تحدَّث عن ذبولِ الحرفِ فيها

بعدَ أن شهِدَ اصفرارَه

سيارةُ الإسعاف لم تترك قديمًا ها هنا

شيئًا جديدًا ها هنا

كانت تعدُّ الذّاهبينَ

العائدينَ لموتهم

كانت تفيضُ أمومةً في موتنا

وتفيضُ مهدا

كانتَ كذلك.. إنَّما

ذهب الجميعُ وغادروا

"وبقيتُ مثل السّيف فردا".

السّادسةُ صباحًا

نعم ستستطيع وكلُّنا نحاول

نعم ستستطيع

وعندما تعودُ كالمهاجر

وتشعلُ التّرابَ من بكائكَ الغريب

يشقّقُ الصّقيع

ودونما معاول

وعندما تعودُ بالحُنينِ..

أو حذائهِ

وتعتريكَ دهشةٌ

ورعشةٌ

ويستبيحُ كلُّ خائنٍ ثُراكَ كي تبيع

ويكسبَ المقاول

ستستطيعُ أن تعودَ ذاتَ يومٍ كالجميع

مقاتلًا

محاربًا

مقاومًا وتجهل المقابل

ودونَ سيفٍ كيف ذا؟

ودونَ خيلٍ كيف ذا؟

وتسقطُ العزائم

وفجأةً تضيع

وعندها ورغم ذاك كلّه

وما جرى تقاتل

وما جرى تحاول

وعندما تريدُ أن تعود

وكلّنا نحاول

ستحتفي بقادمٍ وخاسرٍ جديد

تؤازرُ انفعالَهُ

وطيشَهُ

وسخفَهُ

تئنُّ في كِياسةٍ: نعم ستستطيع

نعم ستستطيعْ

وكلّنا نحاول

نعم ستستطيع.

السّادسةُ صباحًا

صديقي تريّث

وقد صاحَ نعلٌ أضرَّت بهِ ضائعاتُ الجهاتِ

وحدُّ الحصى الجائعاتِ: توقّف

فهل نادمًا عدتَ هذا الصّباحَ؟

وهل آنَ للرّفضِ عشقًا لقوقعةٍ من ضبابٍ بأن يتوقّف؟

أظنك تهذي

أظنك في أمسك المنصرم

وما سوف يأتي هو الغوصُ في قادمٍ لا يجيء

تجهَّزْ لنحرٍ يليقُ بآخر حرف تمرَّد

تجهَّز لهذي المراسمِ بعد انتحار الشّروق

لقد هاجرَ الحبرُ لمَّا هجَرتَ الورق

لقد أوهموك بأنّ السّطور نجَت من غرق

لقد ضاعَ منك البريقُ وضعت

ورتمُك في رتمه المنطويِّ العنيدِ مشوّش

وصوتُك لا يحتوي نبرتين

وما قد قطعتَ من الدّربِ ليلًا

بدا خطوتين

صديقي تنفّس

تعبنا من الزّحف يوم التصقنا

جريحينِ نرجو سرابَ المدائن

ومن حيث تدري

وما كنت أدري

أتانا منادٍ... له شكلُ وجهي

وعيناكَ في وجهه المستدير

ومسحةُ صدقٍ من الطّيبين

وصوتي

وقلتَ بصوتٍ حزين: صديقي تريث

جَمعنَا الظّلالَ لنبني خيالًا

ووهمًا جمعنا زوايا الدّوائر

صنعنا من الثّلج عنقودَ صيفٍ

فلما أفقنا ضحكنا كثيرًا

ونُحنا كثيرا

غريبان جادا بشيءٍ غريب

وقالا كلامًا عن الحبّ يومًا

عن الأرضِ يومًا

وذابا من الكحل والكاعباتِ

وتاها ذهولًا بكلّ اللغاتِ

صديقي تنفّس

شهيقي يجرُّ الهواءَ إليك

فما أنتَ فاعل؟

وأحبس منّي الزّفير انتشاءً

كحرصي عليك

فما أنت قائل؟

لديّ الكثيرُ وقد جابَ يوًما على راحتيك

ضحوكًا أراني أقلّب بعضي على جانبيك

وصبحي لوجهي _صديقي_ تحسّس

فكن لي أنا حينما لا أكون

كأنّي أنا

لأني كليلٍ بليلٍ تيبّسَ

وأخشى عليك كأني لديك وكم كنت مني!؟

لذا يا صديقي

لأجلي.. ودومًا

لأجل الذي ليس يدري ويدري

صديقي تنفّس.

السّادسةُ صباحًا

الحزنُ أفقدني الكثيرَ من الماضي

والكثيرَ مني

متجذِّرٌ أنا كشجرةٍ عاريةٍ في مستنقعٍ حديث

جرَفَت إليهِ الأيّامُ ما أخذته منه في طريقها إليه

وها أنا أدهنُ ذاكرتي بالصّور المضحكةِ

والصّورِ المنسوخةِ من جسد امرأةٍ..

لا تملكُ إلا قلبي

استأنسُ بالوحدةِ

بطريقةِ ثرثرتي مع غصنٍ

علّقتُ عليهِ مصابيحَ مخضّبةً بالزّيتِ

وفارغةً من ذاك الزّيت

بطريقةِ تفكيري بالوقت

والخوفِ من استمرار العبثيّةِ في هذا الوقت

أفقدُني حتّى وأنا موجودٌ في كلّ حديثٍ

أبدو طرفًا فيهِ

وأنا أتجشّأ حدسي وأكذِّبُ ما يمليه عليّ

وأزوِّرُ ما يظهرُ من رفضي

كي أقبلَ بهجيرةِ هذا الضّعفِ

وهجيرةِ ما استسلمَ منّي

يومَ استسلمتُ لأغصاني العاريةِ

ولشيءٍ في مجهولِ القادمِ

لا يعترفُ بحقِّ الحطباتِ

بأن تتورّدَ يومًا

أو تثمرَ في موسمِ قطفِ الأحزان.

السّادسةُ صباحًا..

عملاقتي الصّغيرة

أحتاج عدَّةَ البقاءِ في الخليقة

حروفَك البسيطة

ورقّةً تخبّئين كلّما حادثتني

في النّبرة الرّشيقة

يا صدفةً تجيء في طقوسِها

كي أتركَ النّساءَ خلفَ من تجهّزت

للقمعِ والدّوائر المميتة

أعودُ من تزندُقي

ضلالتي

كناسكٍ لا يذكرُ «الحلّاج» في احتضاره

لكنه يعودُ في ملابسٍ خضراءَ من لذاذةِ التصوّفِ

وسبحةٍ من صاحبِ الطّريقة

عملاقتي الصّغيرة الخطيرة

المجرماتُ في السّجونِ يا صغيرتي

ووحدُك الطّليقة

القاتلاتُ ما اعترفن حينما قتلن بالجريمة

ولحظُك الرّقيقُ من يعود في سلاحهِ

ليقطر الرّجال من سلاحه

ممَثِّلا _في مسرح الجريمةِ_ الجريمَة.

السّادسةُ صباحًا

ستسقطُ المدنُ الملحيّةُ قريبًا

سيسقط الرّجل الآليّ من حساب القاعات المكدَّسةِ..

بالطّحين

وقريبًا ستتسلّحُ العصافيرُ بمخالب فولاذيّة

وتشرفُ العجائزُ على صناعةِ قبّعاتِ القشّ

النّاسُ ستستبدلُ الهواتفَ النقَّالة بالرّسائل الورقيّة

وشركاتِ الاتّصال بساعي البريد

والأسرَّةِ بالحجارة

والمشروباتِ الغازيّة باللبنِ الطّازج

ويحكمُ المتحضِّرُ قبيلتهَ بشريعةِ حمورابي

عندها قد تستجيرُ قُبَّرةٌ بمُزارعٍ ما دون أن يشويها

وتتمرّنُ الرّوح أن تحلِّقَ في فضاءاتٍ..

تخلو من الغازات السّامة

لن تلجأ سيدةٌ للعرَّافِ كي يبحثَ في جسد ابنتها..

عن مارد

لن تشتري الأقمشةَ الأرجوانيّة لتطرد نحسَها العتيق

النّبلاءُ سيحيون بين العامّة

سيعملون في ورشات الحدادةِ والنّجارة

والفنادقِ التي تسمح للطّيور المهاجرةِ..

أن تستريحَ على ضفاف المسابح

الطّقوسُ الماطرةُ لن تزعجَ أحدًا

فالمنازلُ مليئةٌ بحطبِ المواقد

مليئةٌ بالأوعيةِ المغلَّفة

مكتظةٌ بكنزاتِ الصّوفِ والأوشحة القطنيّة

المشوّشون سيتبارزون دونَ جمهورٍ يصفّقُ لهم

دونَ أضواءٍ تلاحقهم

ستتلاشى أصواتُهم في فضاءٍ يخلو من خاصيَّة..

الصّدى

ستحترقُ الازدواجيّةُ في أُتون الوضوح

تنَّورِ الموقف الواحد

الرّأي الواحد

عندها سنمحو الخطوطَ الوهميّة عن لوحةٍ مُستوردة

ستهجرُ «الباروكات» رؤوسَ النّساء

لا حاجةَ حينها لأحمر الشّفاه

وطلاء الأظَافر

الكتابُ الأكثرُ مبيعا سيكون عن تدوير النّسيان

الفيلم الذي سيحصد «الأوسكار»

سيكونُ عن البسوس

لن يُحتقرَ أحدٌ حينها لمثاليّتهِ

لغرابتِه

لن يدفعَ حينها رجلٌ ثمنَ ابتسامته في وجهِ المدن..

الملحيّة

فالمدنُ الملحيّةُ غارقةٌ في الوهمِ.. وإن وُجِدَت

غارقةٌ من قبلِ وجودِ الملح.

السّادسةُ صباحًا

مسحوقون تحتَ حوافر التّسويفِ قومي

كلُّ ما فينا يُصفَّى

كلُّ مُلتجَأٍ ومأوى

كلُّ ظَهرٍ يابسٍ

مُحدَودبٍ من شيبهِ

وجديلةٍ ترتاحُ إن حَطَّت على خدٍّ أسيل

والليلةُ الظّلماءُ جاءت

جاءت أخيرًا

قالَها حَلْقٌ عَليل

بَدَأت خُيولُ القَومِ تَعوي

بَعدَما جَفَّ الصَّهيل

مُتمزّقٌ كحبالِ أصواتِ المُنادي والنداء

كحبالِ أصواتِ الدعاةِ مع الدعاء

متمزقٌ... لكنَّنا ندعو

كانت تتمزّق أرضُ القدسِ

وتنفصل الرّئتان عن الشّريانِ

وندعو

كانت تتجمّدُ في البردِ

وكنّا نلبسُ معطفنَا من وبرِ الأرضِ

وفي الحرِّ... وندعو

كنّا إن ضَحكتْ من ألَمِ السكّينةِ ندعو

إن رفعت يدها بالنّصرِ

ومن تحت الأنقاضِ

وتحت القمعِ

وتحت التّشريح المدروسِ لخطِّ العودة

أيضًا ندعو

نحن اخترنا أن تتعذّبَ

واخترنا أيضًا أن ندعو

مُتمزّقٌ من دون أن يُبكى عليهِ

فلا نوائحُ في الجوار

تحتجُّ شكوى المتعبين من الرّسالات الطّويلة

تحتجُّ صاحبةُ الجديلة

وقبائلٌ لمَّا أضاعت نوقَها

قد ضيَّعت ثأرَ القبيلة

هم يحرثون القلبَ مِن بعدِ اشتغالِ القلبِ في جزِّ

الضّجر

هم يبذرون الدّمعَ في عين المسافر والسّفر

وهنا يذوبُ الكحلُ من عين النّساء

وهنا يعود إلى السّماءِ القادمون من السّماء

والأرضُ تحفظ جيّدًا

أصواتَ مَن عُجنوا بها

ومزاحَهم

وجراحَهم

والدّنداتِ المُتقنَاتِ على «الحصيدة»

وتجوبُ إحداها القريبَ

وما تراهُ أمامها

ويجوبُ موّالٌ بعيدَه

والحارثون يردّدون مقاطعَ الوطن الحزين

وطني الحزين

ذاك المحمَّل في صدور الرّاحلين

ذاك المُتَمتمُ في دعاء الرّاكعين السّاجدين

ذاك الممدّد _إن نظرت_ على الجبين.

السّادسةُ صباحًا

لسببٍ ما أجهلهُ تمامًا أحبّك

لسببٍ ما أعرفُه جيّدًا

ودونما سببٍ أحبّك

فهل تشعرين بهذا الشّعورِ اللذيذ؟

أنا لا أحلّل معناكِ في الأمس لي

ومعناكِ في غدنا وما بعد غد

ومعنى احتراقِي

ورقصي أمام الجميعِ احتفالًا لأنّكِ جئتِ

ومعنى انتشاء العروق بذات الجسد

ومعنى انصهارِ اليدين اللتين تلملم شعَرًا يحطُّ

كنورسةٍ تحت شالِك

فلا شيءَ يُعرفُ للعاشقَين

ولا شيءَ يُفهم من عاشقَين

فلا الحقدُ حقدٌ ولا النّأي نأيٌ

ولا قتلهم للحنين مرارًا يميتُ الحنين

لسببٍ ما سأغنّي

ففي الأغنيةِ آخرُ ما ضاع منّي

أو ما قد يضيع

سُمرتُك مثلًا حين تصبغُ ذاكرتي بالقبلة

وليلٌ أطولُ مما تصوّرت

أطولُ من شعرِك الذي يحيّرني لونُه

ومن مساحةِ ابتسامتك

أطولُ منّي وأنا لوحدي

وأقصرُ طالما كنتُ بجانبك

فهذا الليلُ يا «لولا» يَعشقُ

كأنتِ

كأنا

كمعظم الفضوليين في عصرِ الخبر

وهذا الليل يعشقك

كأنّا

كأنّا تمامًا حين أتماهى بضحكتكِ الطّويلة

كأنّا حين أرتّبُ الصّدفَ تباعًا

واللحظاتِ الأولى تباعًا

كأنّا حين أحاولُ..

قصَّ المسافةِ دومًا بنصٍّ قصيرٍ تكونين فيه

وقطعَ الطّريق

ودمجَ البلادِ التي لا أراها بنصٍّ قصيرٍ

تكونين فيه

هذا الليلُ أنتِ

وأنا

والكثيرُ من النّصوص القصيرة

لسببٍ ما سأذكرُ أوَّلَ موعد بيننا

أوّل طاولةٍ

وفنجاني قهوة

أوّل اكتشافي لك

أوّل التهامي للكنتكِ الأنثويّةِ

بواكيرَ الرّعشةِ

والفضول

قلقَ اللحظة إذ تتدفّق فجأة

تتوقّف فجأة

أكتشفُكِ

أكتشفُ المساماتِ الصّغيرة

البيانو تحت جلدك

العودَ من بين أصابعك

الطّبلَ في حنايا قلبك

أستلذُّ بالعطر الباريسي أسفل رقبتك

أخبرتك يومًا: "لا تهمُّني باريس"

لكنَّ عطرَك يهمُّني

أستلذُ بدوران خصرك

أتركك كقطّة تخرمش صدري غاضبةً

وتعبث بياقةِ قميصي حين تعتذرُ عن عدم اعتذارها

لسببٍ ما سأحبك أكثر

سأكونُ متّزنًا

ومرتديَ الجنون

إذ لم تزل في خطوتينِ

من الخطيئةِ والفضيلةِ

هذه القدم التي تمشي إليكِ

وإن تكسّرت المسافةُ تحتها

تمشي إليكِ كأنّ سادستي ستجمعنا معًا

لا زلتُ متّزنًا

فتنتقمُ المشاعرُ من فمي

فأعدُّ وجهكِ راهبًا... متنّسكًا

وأعدُّ وجنك ثائرًا... مُتحاملًا

فلطالما منعَ التقاءَك بالتقائي

هل تقرئين الكفَّ؟

قولي ما يفسّرهُ المنجّمُ عن خطوط يديكِ

أو حتّى يدي

وخطوطِ ألوانِ الشّفاه على الشّفاهِ المُستبدّة

قولي فأغلبُ ما يقالُ نودُّ دومًا أن يُقال

أنا لا أجيدُ الوصفَ

وصفَ المقعدَين إذا جلسنا

ووصفَ رصيفٍ يعدُّ خطانا إذا ما مشينا

أنا لا أجيدُ الحديثَ عن شوقِ فنجاننا للشّفاه

وكيف على رؤوس قدميها تقف الشّرفاتُ البعيدة؟!

ولا عن صباحٍ تمرّين فيه

ولا عن مساءٍ تكونين فيه

ولا عن صوت جوّالِنا بميلاد نقطة

وميلادِ صورة

وميلاد حرفٍ

وميلادِ نبضة

أنا لستُ أكتبكِ زهرةً في حديقة... وشمسًا مستديرة

وراقصةً غجريّةً فرَّت من ويلاتِ الحروب

لا أكتبُك وجهًا غفا فوق صدري كعصفورةٍ مستجيرة

أنا حين أكتبُ

أكتبُ عنك كأنتِ... كأنتِ تمامًا

لذا لا أجيدُ الكتابة.

السّادسةُ صباحًا

إنّي لمحتُكَ ذاويًا في مقعدِك

أو كانَ غيركَ من رأيتْ

قد دلَّني شيءٌ عليك

العطرُ... أعرفُ ما تفضّلُ من عطور

التّبغُ... إذ غصّ الدّخانُ بنفثةِ الصّوتِ الجَهور

وتجيءُ أحيانًا وعصرُك عالقٌ في عالمَين

تأتي بأكثرِ ما تريدُ بأن أراه

مهما ادَّعيتَ فلم أرَ إيّاهُ فيكَ

ولا سواه

لكنَّ شخصَك مثلُ وهمِك

مثلُ جِدِّكَ قد تشبَّع بالسّنين

وأراك تحملُ فوق ظهركَ كائِنَك

وأرى على شفتيك قبرًا طازجًا

وأراكَ مِن عينيكَ لا عينيَّ مُندهشًا

إذا أقبلتَ مندهشًا

إذا ولّيتَ مندهشًا

إذا استسلمتَ للآخر

صديقي أنتَ إذ لازلتَ تعرفُني

وتعرفُ ذلك الآخر

إنّي وجدتكَ عالقًا في حيرتِك

فانصر يقينكَ مرّةً بالبحثِ عمَّا قد فقدت

خذ ما تشاءُ من الغرابيلِ التي

نثرَت شخوصًا حرَّضوكَ على الضّياع

فلنقتسم خُبزَ الجياعِ

ولا تقل: إنّي اكتفيت

ستّون عامًا والمشاعلُ لا تمارسُ نورَها

ستّون عامًا والرّضيعُ ينامُ في مهدِ البغيّ

غاباتُنا الجدباءُ تمنحنُا القليلَ من الألق

إنّي وأنتَ نخافُ من قُطعانِهم

إنَّا نخافُ من النّوارسِ في نهاياتِ القصيدة

نخشى من العمقِ الذي يلتفُّ حولَ دمائنا

ويشدُّنا للقاعِ ثم يقودُنا نحو الهزيمة

غاباتنا تمتدُّ في ذاك الفراغِ كما المحيطِ بلا نهاية

أخشى بأن نجدَ النّهايةَ قبل أن نجدَ البداية

الخطوةُ الأولى جريمتُنا

وفانوسُ التّعاسة

والحرصُ قنديلٌ يضيءُ لنا تخبُّطَنَا

ويستدعي الجَراد

لا ضوءَ في الآتي ولا

في آخر النّفقِ الذي لا ينتهي.. حزمَة

لا حُلمَ يَحملُ هذه الأمَّة

الحالمون تأنسنوا

لبسوا من الأثوابِ أثوابَ الحِداد

سلكوا سوادًا قادهم نحو السّواد

نزلوا سهولًا بغيةَ القمَّة

لا صوتَ للمخنوقِ في الأعماقِ إن نادى

ولا في العمقِ _إن نادى_ مُجيب

يأبى صدانا أن نُجبِّرَ كسرَه

يأبى السّقوطُ نجاتَه

يخشى إذا امتدَّت يدانا أن تزيحَ الغمّة

والحالمون تأنسنوا

نزلوا سهولًا بُغيةَ القمّة.

السّادسةُ صباحًا

لا يثيرني الجيدُ إن لم يكن عربيًّا

لا يثيرُني صوتُك إن خلا من موشّحٍ أندلسيّ

ولا جسدُك إن لم تَفُح منه رائحةُ الزّيتِ البلديّ

أنت شهيّةٌ بلغةِ الصّحراء

وقساوةِ الصّحراء

وبراءةِ الصّحراء

شهيّةٌ بالرّاحتينِ ال تخضبتا بالحنّاء

شهيّةٌ بمراوحةِ الحمرةِ بين وجنتيكِ وجبينِك

بممارسةِ الدّكتاتوريّةِ مع سارقي الكحلِ

بانغلاقكِ على الذّات

وحرقِ بساط الرّيحِ

وارتطامِ الطيّبةِ فيكِ بابتسامةٍ ماكرة

لا يروق لي شِعرُك عنّي

فأنا من أكتب الشّعر

ولا نترُك عن حقّي بممارسةِ العشق

فجوازُ العشقِ هو السّريّةُ في نقلِ الكلمة

والخطرُ بتهريب النّظرات المسروقة عبر حدودِ..

الأعرافِ القَبليّة

هذا العشقُ السّهلُ جريمةُ هذا العصر

هذا العشقُ المسموحُ يذكرني بإماء السّلطان

وجوارٍ في ردهاتِ القصر

لا يروقُ لي نصّكِ الأخيرُ عنّي

فلستُ متحضّرًا ولن أكون

ما زالت الجِمالُ تسيرُ فوق مخيِّلتي

ما زالَ الهودجُ مستودعَ أسراري الصّغيرة

وكلُّ ما ثرثرتُ بهِ عن آخر صيحاتِ الموضة

وموسيقا الجاز هراءٌ واصطناع

فلطالما حدّثتك عن الفيزياء وفيزيائي تشتعلُ بك

ولطالما حدّثتكِ عن شكسبير وأنا أفكّر بأبي العلاء

ولطالما حدّثتك عن مشهدٍ أوسكاريّ

ولقطةٍ هوليوديّة

وأنا أتذكّر قتلَ بُجيرٍ بالشّسعِ الأحمق

لا تفعلي شيئا سوى أن تكوني شرقيّةً بحقّ

فالوتريّات أكثرُ ما يطربني

واحتواؤك لتشنُّجي القبليّ أكثرُ ما يُحرّضني

فكوني شرقيّةً بحقّ

وإن لم تستطيعي

فحاولي أن تكوني.

السّادسةُ صباحًا

دع سكونَ اسمكَ في حنجرتي

أو ياءةً صغيرة

دع حاجتي إليكَ حينما ألوذُ بالحوار

دع لي مخاوفَ الحروفِ

عبرَ أيِّ نبرةٍ مكسورةِ القرار

دع ما استمعتَ

أو سمعتَ مِن فمي

لا كلُّ ما تقوله الشّفاه قد يكون

لا كلُّ ما يقالُ من حقيقةٍ حقيقةً

فربّما ظنون

فالقلبُ بانكسارهِ

يكادُ أن يكونَ عاقلًا

أو هكذا يكون

كن حيثُ كانت سيّدي

فحيثما تكونُ قد أكون

مع كاعبٍ سواي لا يهم

مع قصّةٍ جديدةٍ

تكونُ في فصولها المُخلِّص

تكونُ ألطفَ الجميعِ

أودعَ الجميعِ

أقدَرَ الجميعِ أن يكونَ حزنُك الشّجيُّ ذاته المُنغّص

لأنّك الوحيدُ مَن تخافُه الحروفُ إذ تثور

لأنّك الوحيدُ من يكون غاضبًا بلحظة الفتور

لأنَّ نصفَك ال تخفيهِ في جدالنا خشب

فكلُّ من يهزُّ مهدَ نبضةٍ... أثيرَها

وكلُّ من يحلُّ عن إزارِها

رباطَها الشّفيفَ

طاعنًا سريرَها

ويختفي.. خشب

كن حيثُ لا عيني تراكَ

وإن أرادت أن تراك

ستصدُّني...

أين الجديدُ

وأنتَ تذبحُ مَن أتاك؟

إذ كنتُ أشكو خنجرًا

فأتى بخنجرهِ المُذهّب

قد كنت أحمي صدرَه

ويحطُّ في ظهري ويرفع

ثم يدنو

ثم يَسحب

إنّني الأنثى التي تُدمى وتُصلب

مزَّقت كفاك قلبي

مزّقتني

كيف تحيا مَن بها قلبٌ ممزّق؟

سنتانِ

أو عامانِ مرَّا من هنا

وبريقُ حائر

أُولى بقايانا

وآخرُ ما تبقّى من ألم

إنّي رأيتكَ مُثقلًا بالنّصفِ فيكَ

ومثقلًا فيكَ العدم

قد كنتَ طفلي

حينما أمسكتَ كفّي

ثم داعبتَ الضّفائر

والآن فوقي... لا تسيرُ سوى عليّ

أتراكَ ضيَّعتَ الطّريقَ

وسرتَ فوقي؟

أم أنّني كنتُ الطّريقَ

وأنت فوقي محضُ عابر؟

السّادسةُ صباحًا

تخطّيتِ الثّلاثين؟

لم أُدرك أنّ النّوتة في هذا العمر تقفز من سلّمِها

كي تسكنَّ حنجرةَ الموسيقيّ

أنّ الزّنبقةَ بهذا العمر تبدو نورسةً زهريّة

لم أدرِك أنّ المرأةَ تُبعثُ بعدَ المدِّ العُمريِّ كحوريّة

الهمسُ وفلسفةُ الألوانِ الزّاهيةِ حفلٌ بشريٌّ

مدعوانِ إليهِ

وقد يمتدُّ إلى منتصفِ العمر

إنّي أتورّط في عشقِ الجسد المزهوِّ بنفسهِ

فالجسدُ له طبعُ اللبؤاتِ المفترسة

والجسدُ بهُ رائحةُ البندقِ والزّعترِ والصّفصافِ

ووردات جوريّة

والليلةُ من تُلقي القبضَ عليَّ لأنّك لي

مجنونٌ إن لم أكتبك كما أنتِ في هذا العمر

إن لم أتحايل لتكوني موضوعي القادمَ

والمرجعَ لإناث العصر

مجنونٌ لا مشفى يقبلُه كي يمضي نوبتَه فيه

وحبوبُ النّوم تزيدُ من الشّغَفِ الغزليّ

وهناك من الأفكارِ بما يكفي للجريّ أمامَ النّاس

وعناقكِ

واستقبالكِ بالهرجِ الصّاخبِ في أيِّ مطارٍ تهبطين فيه

هل أخبرَكِ الشّوقُ لماذا يعشقُ مثلي امرأةً مثلكِ

تحتاطُ إذا قبَّلها بالقسوة؟

هل أخبرَك أنّ الرّجلَ يعود لموطنه الأصليِّ بين

النّبضة والنّبضة؟

ما كانَ يعود مع الحاضر كي يبدو القادمُ من عمري

أنتِ

مولدُكِ... والعمرُ الثّلاثينيُّ يعيد القلمَ إلى كفي

والرّقصُ وأنتِ الآن بهذا الدّلعِ المتوارثِ من أسرارِ

المقطوعاتِ

بهذا الجسدِ الفائضِ باللحنِ

وهذا اللحظِ النّاعسِ

والعاجزِ أن يُمسِكَ بحوارِ محاجرِنا نظرة

أجملُ ما يحدثُ في منتصفِ العمرِ

وأقصرُ لحظة.

السّادسةُ صباحًا

لا تلفظِ الأنفاسَ

آمركَ انتظر

الآن تُصغي مُكرهًا

الآن أبحثُ فيكَ عنكَ ولم أجدك

وحدي سأركبُ صهوةَ القولِ المؤجَّل

كلُّ الكلامِ الآن يبدو واضحًا

أنا لستُ مثلَكَ أنتقي ضدَّيهِ منهُ

وما يُؤَوَّل

قد حانَ دوري... لا تخفْ

فإذا مَللتَ فعانقِ المَللَ المَلُولْ

سامرهُ إنْ أحببتَ... جَرّبْ

ما يَضيرُكَ إنْ فعلتْ؟

حاوِرهُ بالتّيهِ الذي يحتلُّ صوتَك

مُذ نَطقَت

حاربْ طواحينَ الهواء

حاربْ بسيفِ الأشقياء

وارجعْ تَجُرّ هزائمَك

في عتمةِ اللحظاتِ أنت

في عتمةٍ شُبّاكُها حِزْماتُ نورٍ

لن تُجاريَها وتدفعَها إليك

وشقوقها نورٌ يُشقشِقُ إنّما... جَثَمت عليك

ستكونُ وحدَكَ والعَوَزْ

ستكون نهرًا من عَطَشْ

وأنا سأنقذ حينها الأصباغَ من هذا الجفاف

لا تنزعج كيلا تحومَ غيومُ وجهك مثلما

كانت لدى الماضي تعرّشُ أو تحوم

فمرارُ طعم الفقدِ أهونُ من ريائك والخيانة

قد كنتَ تجلسُ في أريكة حسرتي

وتظنُّ أنّكَ قد ملكتَ

وما ملكتَ سوى سرابي

ما كان عشقًا إنّما

قبحًا تقنّع بابتسامة

ما كان إلا محبسًا في إصبعي

يمتدُّ قيدًا كي يطوّقَ رقبتي

يزدادُ خنقًا... حرقةً

أُذكي بلمستهِ اضطرامَه

لا تُكتبُ الأشواقُ رغمًا

بيدَّ أنّ النّبضَ يُرسمُ كالتقاءِ النّوم واليقظة

لا تُحفظُ الأشواقُ في سردابِ جفنٍ

إنّما الألحاظُ تُرسِلُ من مكامنِها البريق

هكذا أنهيتُ دوري... لم أُجِد

لكنَّ من يرتادُ عصرَكَ لا يُجيدُ سوى الملامة

خلفي نوافذُك السّجينةُ في ستائرِها الحديد

وجنائنيٌّ ناهز السّبعينَ من زمنٍ بعيد

أشجارُه حطبٌ

هواءٌ ماؤه

وسمادهُ جمرٌ

وتربتُهُ جليد

قد كنت أحسبُ أنّ مثلَك لا يموت

فاسكن جمودكَ

والتحِف هذا البرود

مت مرّةً

مت في سريرِكِ مرّةً

ذُق ما أذَقتَ لعلَّه أيضًا يموت.

السّادسةُ صباحًا

منطقيًّا أنتِ أبعدُ من مجرَّةٍ في درب التّبانة

أبعدُ من نورسةٍ مهاجرة

ومن سمكةٍ في ظلماتِ محيط بعيد

منطقيّا أنتِ في محطّة تركتُها منذ أمدٍ بعيد

في منطقةٍ هجرتُها منذ احترفتُ الشّعر

في بقعةٍ لا تسمحُ للغرباء بطرقِ أبوابها

منطقيّا أنتِ النّجمةُ التي تسيرُ على السّجادة الحمراء

النّجمة التي تلاحقُها العدسات

يلهث الصّحفيون لأخذ تصريح منها

بينما أكتفي أن أكون من بين الجمهور

ومنطقيّا أن تكوني بعنفوان أنوثتك أضخمَ منّي

بعقوق نهديك أشرسَ منّي

بغطرسةِ خصرك ونرجسيّة قوامك أفرسَ منّي

لكن المنطقَّ بلا منطقيّة أمامك

بلا قاعدةٍ بحضورك

بلا أبجديّاتٍ لديك

منطقيّا عليّ ألا أكونَ في زمانك لكنّني موجود

وألا تكوني في زماني لكنّك تحتلّين وقتي

لذا أنت مدهشةٌ

وغريبةٌ

ومتفرّدةٌ في كلّ شيء

منطقيّا كان عليّ أن أعانقَك وأرحل

لكن جنوني حرّضَني أن أنامَ على صدرك

أن أغفو كطفل وجد ضالّتَه أخيرًا

هذا ما يسمّى بالعشق الأوّل

والمحطّةِ الأخيرة

فتحْتَ أيّ بندٍ سأصنِّفُ غيابَك؟

وبأيّ ذريعةٍ سأقنع الرّسائلَ أن تسير على سطحِ

الصّدفةِ دون أن تتبلّل؟

ما هو الحلّ لأبدو بربريًّا متفهّما؟

فأختصر بعدها النّعاسَ بحلم

والفكرةَ بابتسامة

وحاجةَ الشّفاه بقبلتين ماكرتين سريعًا

أدعوك مرةً أخرى للحدِّ من تطفّلي

أدعوك لأن أستسلمَ

أطالبُك أن أيأسَ منك

لعلَّ الرّفضَ ينبتُ زهرةَ القبول في وحلِ جفائك!

في أيّ قائمة سأدوّن حضورَك عندما ترحلين؟

السّنابل الطّويلة؟!

الورود المنقرضة؟!

الظّباء النّاعسة؟!

فكيف أحدّد من لا تشبهُ إلا وجهَها؟

ومن تعودُ في القحط بسلَّتينِ مما لذَّ وطاب؟!

هذا ما يسمّى بالبعثِ من الرّماد

ما يسمى بالثّورة على التّقاليد

برفض الطّريقة المُثلى للحياة

والاستسلام للجنون والعبثِ اللذيذ

لذا أنا أحبّك.

السّادسةُ صباحًا

أكتبُ للبحرِ ولا تعجبُني الأمواجُ... ولا الشاطئ

والبحرُ بحرُك إنَّما من غير بحر

بلّل ثيابكَ بالسّرابِ

وانزعْ ذهابكَ من ذهابي

ولا تقُل سرقَ القراصنةُ العتاةُ البحر

من قال ذلك؟

من تجرَّأَ أن يخادعَ مَن يُخادع؟

فالبحرُ باعَ الماءَ ثم ابتاعَ كي يحيا... زجاجةَ ماء

ولعلَّه نسيَ المضاربَ حين فرَّ من الغزاة

وكانَ البحر أسطورة

وكان القومُ مأخوذين باللوحاتِ والصّورة

ولكن كان أسطورة

تعيسٌ قلبُ من عشقت نسيمَ البحر

تعيسٌ من غدا يجري وراءَ البحر

تعيسٌ نظمُنا الموزونُ

والمحبوسُ بينَ الوزنِ والإيقاعِ

مخفورًا بقيدِ البحر

لكنِّي أكتبُ للبحر

أكتبُ للبحرِ ولا تعجبني الأمواجُ... ولا الشاطئ

وأجيبُ سؤالاتِ امرأةٍ لا تعرفني بالتّفصيل

وألمُّ حكاياتٍ نُقلتْ عن رجلٍ مختل

أستطردُ بين الجملةِ والجملة كي أبدو مختلفًا

أكذب حين أقول: الحبُّ وأشياء أخرى

فالحبُّ غرابٌ ينبشُ مقبرةَ الأحياء

وغرابٌ في أقبيَة الرّوح

دجَّنه الشّعراء الكذَّابون

قصّوا مخلبه كي يقفَ على الشّريان التّاجي بُعيدَ

النّظرةِ

أو بعد النّبضةِ كالعصفور

تسألني عنهُ

وتدوِّن عنّي ما لست أقول

لا يحتاج الموت لشرحٍ أو طرحٍ جيّد

لا يحتاجُ للونٍ مختلفٍ هذا الكفنُ البالي

الأرضُ ستأكلُنا قبل نفادِ الكميّة

وستصنع من عظمِ الحسناوات الزّهر الأحمر

الموتُ ولا تسألني عنه

جوابٌ لا يقبلُ وجهَين

نتعادلُ في النّفسِ

وفي الشّهقةِ

والنّظرةِ نحو رحيلِ الرّوحِ لأرضِ الرّوح.

السّادسةُ صباحًا

أمنياتٌ دونما سببٍ تضيعُ وتختفي

وتثيرُ غوغاءَ التّساؤلِ والشَغب

أنا مرهقٌ حدَّ التّشبثِ بالغضَب

حدَّ التّلبسِ بالعتب

حدَّ انفصامي عن فصامِ ملامحي

وجوارحي

أنا ذلك الموجودُ خارجَ هيكلي

أنا ذلك المنبوذُ من دمهِ ولا يدري السّبب

لا طاقة للرّفضِ تطردُني إليّ

لا مِن دليلٍ أنّني في العمقِ حيّ

فكأنّني غَرَقٌ أقاومُ غارقي

وكأنّني قزمٌ أقاوم مارقي

محتلّةٌ روحي بكلّي

والمحرّرُ قاتلي

يحتلُّني تعبي وأحتلُّ التّعب

هي أمنياتٌ باعَدت

بيني وبين اللحظةِ الأولى

ولحظتِنا الأخيرة

وذكرتُ مشرِقَ وجهِها

ولمستُ ذاكَ القيدَ في كفٍّ صغيرة

وضحكتُ لمّا أقبلت

ومددتُ كفّي للهواءِ وقد أشارت للهواءِ بأن يطير

وجررتُ أقدامي أمامي حينَ صاحت:

قد ركبتَ المستحيل

عبَّأتُ نفسي في قواريرِ الهزيمةِ وانزويت

لحقِت تحطِّمُني

تحطِّمُ ما بنيت

قد آثرَت أن تستبيحَ ضجيجَ عمري والألمْ

وتكون جرحًا ثانيًا

أو ثالثًا

أو عاشرًا

وأنا ككلِّ العابرينَ بجرحِهم

رقمٌ يضاف إلى رقم

لو تقرئينَ خطوطَ وجهي جيّدًا

وتحللينَ بثورَ كسري مرّةً

كقراءة الفنجانِ قوَّضكِ النّدمْ

مُلئت سلالُ الخلقِ حبّا دافئا

مُلئت سكونًا

رحمةً

ووقفتُ أحملُ سلَّتي

وتنزُّ من قشّاتها

قطراتُ أشواقٍ ودم

من أينَ أبدأُ بِاقتِلاعِكِ مِن دَمي؟

من أينَ ألفظُ داخليِ منّي

وألفظُ مَن يعاني

ما بَينَ إقدامي عَلَيكِ

وبَينَ إخفاقي ثَواني

ما بَينَ إِرسالي الوُرودَ

وبَينَ مَن سَرَقَ الورودَ... ثواني

بِالأمسِ كُنتِ حقيقتي

شغفي اللذيذَ

خطيئتي

فَلِمَ تلاشَى كلُّ هذا في ثَواني؟

إنَّ وَجهًا مثل وَجهِكِ

لا يَليقُ بعاشق إلا إذا نَزَفت دِماهُ

عَلى الشَّوارِعِ والرَّصيف

ولأنَهُ للغَيرِ أضحى

سَوفَ يَقتُلُني النَّزيف

عَادَ الصَّقيعُ يَزورُني

وأنا مَلَلتُ بِعالَمي هَذا الصَّقيع

هو أسودٌ كيلا تفتّشَ عن بياضِ الأمنيات

هو مزعجٌ مِن ضمنِ تلك المُزعجات

هو حظُّك المنحوسُ... عالمُك الذي

يرديكَ من وادٍ لواد

هو حظُّك المعصوبُ في قاع المصائبِ حين تحثو

فوق هامتِه العناد

هو ذلك الحبلُ الذي

يدنو إليكَ لترتقي

فأراهُ يشنقُ مرفقيكَ

ومنكَ ينتزعُ الحياة

هو حبلُ موتِك ليس حبلًا للنّجاة

والحبُّ نَبوتُكَ القديمةُ

والسّقوطُ مِنَ الوقوع

هي ضربةُ الفأسِ التي نجتِ الجذورُ لوقعِها

من ثمَّ أسقطَتِ الفروع

هي زلّةُ القلبِ الذي

يُخفي بداخلِهِ الأناقةَ

والرّزانةَ

والهدوء

حتى إذا مدَّت لهُ العكّازَ أفكارُ الرّجوع

خذلتهُ أيضًا

حرَّضَت إنسانَه

ألّا يغادرَ قاعَه يومًا إلى تلك الصّدوع

خذلته تلك الأمنياتُ

وحظُّه

فيكادُ يُنسى إن حضر

جاء الكلامُ نيابةً عنّي

وصدَّقه الضّجر

في الليل يخرجُ حاملاً أكياسَهُ

قالوا: يلملمُ نفسَهُ

ويعودُ يحملُ عطرِها

وثيابَها

ووعودَها

لكنّهُ خسرَ القمر

ترى من جاء يُنشدني؟

وصاحت جوقةُ الكلمات: يا لحنًا نشازيًّا

أيا لحني

أعِد خلفي... وكورالُ الشّقا خلفي

أنا أهذي... وللأصواتِ إيقاعٌ تعيدُ القولَ من خلفي

أنا أبكي... وللآهاتِ تمتمةٌ تعيدُ اللحنَ من خلفي

فلمّا صفّق الجمهورُ مال العودُ منثنيًا

ولما غادر الجمهور قام إليَّ يقتلني

أيا لحني

وأصواتٌ تناديها

وأوجاعٌ تناديها: أيا أنتِ ارجعي

ومواسمي متشابهاتٌ في النّدامةِ والحنين

يا أنتِ قد سحقَ الزّمانُ وشلَّ تشريني الأمل

شرسٌ هو اللفظُ الحزينُ من الشّفاه المطبقاتِ الصّابرة

شرسٌ هو اللفظُ الذي قد خانَ صاحبهُ

وبثَّ المفرداتِ القاهرة

شرسٌ إذا كان الكلامُ

وكلُّ ما يعنيه فينا... أمنيات

هي أمنياتٌ... ربّما

سَحقَت عظيمَ الأمنيات.

السّادسةُ صباحًا

حاذر أن تكون عربيًّا

سيسحقُكَ في أوّلِ حوارٍ شبحُ ابن تيمية

سيصلبُكَ الحلّاجُ على جذع الصّوفيّة

سيكفِّرُك الكفرة

سيحرقُك هارون الرّشيد بتهمة التّخابر

وتوقِّعُ أوراقًا تثبتُ أنّكَ جاسوسٌ..

من لحظةِ مولدِك المشؤومة

حاذر أن تكونَ عربيًّا

سترفضُك المطاراتُ بتهمةِ سُمرتك الصّحراويّة

ستقفُ على طوابيرِ الأممِ المتّحدةِ

لتبدِّلَ أمَّك بمربيّةٍ مأجورة

مطرودٌ أنت من مطاعمِ البيتزا

والوجباتِ السّريعة

منبوذٌ في قاعاتِ الرّياضةِ

وحلباتِ الجريِ

وصالاتِ العُريِّ

والباراتِ التي تتآمرُ مع الزّبائن لحَلبِ ذاكرتك

حرفُ الضّاد جريمتُنا الكُبرى

والواقفون على الحياد مهرّجون

ممثّلون

يحاولون إتقان العبثيّة

العبثيةُ أن تفعلَ شيئا أو تحاول

ألّا تفعلَ شيئًا ولا تحاول

والمحايدونَ يرونَ وجهَك ذاته الذي تراه في المرآة

يسمعونَ صوتَك الذي تختزنُه داخلك

رأيكَ الرّافضَ لغَسولِ الفم..

ومعطّر الألفاظ بكلّ وضوح

منهجَكِ الواضحَ دون مكياجات العصر

وأصباغِ الحداثة الذّليلة

ورغم هذا لا أحدٌ منهم يسمعُك أو يراك

خذ ما تملكه من جُملٍ ابتكرتَها في مصنع عقلك..

وارحل

خذ صراعكَ الدّاخلي واركله مع سلَّة المهملاتِ..

وارحل

لن يفتقدكَ أحد

ولن يذكرَك أحد

فأنتَ لا أحد

وعندما تعتزلُ ابتسم

ابتسم لأنّك لم تعُد صالحًا لهذا الزّمن

لم تعُد تناسبُ قوانينَ هذه المدائن التّائهة

شوارعُها تضيَّق عليك

أرصفتُها تبتلعُ شقوقَ قدميك

جدرانُها تلعنُ حضورَك

شخوصُها ثانويّون في روايةٍ فاشلةٍ تُدعى الحضارة

المتآمرون عليكَ مصّاصو أنهار أفريقيا

سارقو بطونِ الجبال

ذابحو سعفِ النّخيلِ

زارعو الأفيونِ في أفئدةِ الطّيورِ

والمراهقاتِ اليتامى

المتآمرون عليكَ ضحايا البكتيريا والطّفيلياتِ

وضحايا أسلاك الكهرباء

والأقمارِ الصّناعيةِ

وضحايا الصّحنِ الفارغِ والمعدّاتِ المنهوبة

فكلُّ زائرٍ دخل بيتكَ سرقَك

وكلّ مُستجير أجَرتَهُ طعنَك

لم تعد تحتملُ الأكاذيبَ البيضاء

والابتساماتِ الصّفراء

فالإنسانيّةُ عاهرةٌ ضاجَعها الجميع

دخلوا مخدعَها تباعًا غيرَ مكترثين بالعدوى

الإنسانيّة هي الملابسُ التّحتيّة لشقراء ما

وصدريّةٌ ضيّقة لسمراء ما

وسريرٌ ينامُ عليهِ راعي البقر مع صرَّاف آليّ

أن تبكي لموتِ القططِ الجوعى

والكلابِ الضّالةِ

وتطلقَ النّارَ على الأوزّات المهاجرةِ هربًا منك

أن تحملَ حقيبتَك المليئةَ كلّ صباحٍ بصفحاتِ النّعي..

وأخبارِ الزّلازل والفيضاناتِ..

وتبادلَها بموعدٍ غراميّ

الثّقافةُ ما يصدّره لنا أحمق من برامج دعائيّة

منِ مشاهدِ السّرير والمطبخ

من مشاهدِ البطل الواحد... الرّمزِ الواحد

الثّقافةُ أن تكون فارغًا إلا من مصطلحاتِ الشّتمِ

والعنصريّة

فارغًا إلا مِن مَشاهدِ دور السّينما

وآخرِ ما قاله لاعبُ سلّةٍ مشهور

فالحكمةُ تؤخذ من أفواه لاعباتِ الجمبازِ

ومدرِّبات الدّلافين

واللائي ينتمينِ لكلِّ شيءٍ باستثناء ذاكرة الشّعوب

بضاعةُ العربيِّ كاسدة

كلّ العروض التي يقدّمها فاشلة

أصحابُ المبادئ كأصحابِ السّوابق فاشلون

المحلّلون يعيدونَ الأكاذيبَ نفسها

يعيدون تكريرَ الحرفِ بالمصنع ذاته

والزّبائن لا يثقونَ بالصّناعة المحليّة

والتّقاريرِ المحليّة

والإحصاءاتِ المحليّة

والدّراساتِ التي تتحدّث عن نموّ الانتماءِ الوجودي..

بتزايدٍ ملحوظ

فاعتزل قبلَ أن يقتلوكَ على المسرح

قبل أن تصبحَ مُحرِّضًا على الحبّ

مُثبتًا للجميعِ أنّك تشبهُ رجلًا في سيبيريا لم تلتقِ به

وأن امرأةً في نيبالِ تشبهُ جارتَك المتوفّاة

وأنكَ شاهدتَ على التّلفازِ عجوزًا يلحقُ طفلًا

كان إلى حدٍّ مذهل يشبهُ جدَّيك

لكنَّ العالمَ يكرهُنا

يكره تاريخًا لم ينقذ من مئتيّ عامٍ نملة

لم يُرجع ممَن سرقوا هذا التّاريخَ إلى متحفها لوحة

حاذر أن تبقى عربيًّا

العربُ تنام وتصحو هربًا من شبحِ الأمواتِ

وهربًا من عين الأحياء

العربُ تريدُ بأن نذكرَ ما سخَّفهُ فينا المحتلُّ

وأن نحملَ تِركَتَه فوق ظهورِ الكلمات

العربُ تروّجُ سلخَ الدّمعِ عن الأهداب

حاذر أن تبقى عربيًّا

فالعربُ تخافُ من الضّمة

تخشى الشّدّة

تخشى واو الجمع

ضمير المتكلّم

وتخافُ بأن تجدَ في أحدِ الكتبِ المهجورةِ رأيًّا مختلفا

وتخافُ بأن تجدَ الحريَّة.

السّادسةُ صباحًا

عندما يلدُ النّخلُ فؤوسًا تكرهُ البلحَ

وتشتهي السّعَفَ لكي تحرقَه في أرضِ العراق

لا تجادل أحدًا في موطنِه

ولا تحرِّض أحدًا على البعثِ من مدفنهِ

فقد وصلَ آخرُ المتسابقينَ بعدما انتهى السّباق

عندما يلدُ النّخلُ جدائلَ شقراءَ

وعيونًا زرقاءَ

وأساطيرَ لا تذكرُ حدائقَ بابلَ

لا تكترث لنبوخذ نصّر

هاجِر عنك فأنت غريبٌ في بغداد

أنت بعيدٌ جدًّا عن شاطئ دجلَة

أنتَ بأرضٍ تأكلُ كالأرنبةِ بنيها

تلفظُ كالبركانِ الجثثَ

وتاريخَ المهديِّ إلى المجهولِ

وتلفظُ من شرقِ التّعساءِ التّعساء

كان المساءُ فهل جلستَ على الشّواطئ مع سعاد؟

بانتْ... ولم تَلبَس سوارَ الأمنيات

ضاع الشّهودُ الأربعَة

فلمَ أضعتِ النّخلَ _يا أنتِ_ معَه؟

لم تعتدِ الشّكوى فظلّت صامتة

لو لم تكن «كزُريْقها» الرّقراقِ ما كان الفراق

لو لم تبُح بالسرِّ ذلَّ لكَ العناق

لكنّك المخدوعُ في كأسين من خمرٍ وماء

لكنّكَ المخدوعُ في سُكرِ المذاق

لكنَّك الموجودُ فيها

في حبيبتك التي عاشَت وماتت في العراق.

السّادسةُ صباحًا

إنهُّ عام افتراقِ اللوزِ عن أشجارِه

عامُ افتراقِ المزهريّة عن عروقِ الوردِ

والعمرِ البريء

إنّه العامُ الذي يُشرى به الحبُّ من البقَّال بالكيلو

ومن دكاكين الحُلى أكفانًا بألوانٍ مختلفة

إنّه العامُ الذي لا أراكِ جميلةً فيهِ كعادتك

مختلفةً عن الأخريات

فلا شيءَ يدفعُني للتّغزلِ فيك

ولا شيءَ يدهشُ مفرداتي كي تحتويك

فهو مَن يُريني في قوامِك القحطَ واليابسة

وسخفَ ابتساماتك العابسة

ولكنّني رغم هذا أحبّ امتلاكي لك

إنّه عامُ تجميدِ الحروفِ

وتبريدِها في الصّدورِ حفاظًا على قيمتها الغذائيّة

فهنا أممٌ لا تعترفُ بحقِّ السّنبلةِ بأن تصبحَ لوزة

لا تتجنّى على أسارير الطّغاة

لا تحبُّ الرّاحلينَ

لا تحبُّ القادمينَ

لا تحب الضّاحكين

لا تحب المُتعبين

لا تحبُّ الحبَّ والعشّاقَ والأعوادَ والنّايات

أممٌ لا تفرِّقُ بين التّجاعيد المخاطةِ في وجوه الكادحين

القاطعين الفجرَ نحو رغيفهم

وبين شدِّ الوجهِ والأردافِ نكايةً بهذا العام

إنّه عامٌ يشابهُ ما مضى فينا

ويشبُهُ ما يليهِ

لم أفتقد أحدًا لأحفرَ خندقي وأنام فيهِ

لم أفتقد أحدًا فمعظمُ مَن أردتُ لقاءَهم

سكنوا رفوفَ المكتبة

كلُّ الذين دعوتهم عرفوا مكاني جيِّدًا

وتركتُهم في الأمكنة

لم أفتقد أحدًا

ولا عامي افتقد

لكنُّه عامٌ طويلٌ لا يحبّذهُ أحد.

السّادسةُ صباحًا

هل تسمحُ أن تجلسَ قربي

لأُديرَ حديثًا مع نفسي؟

لا أطلبُ منكَ شكاياتٍ

قصصًا

وحكايا

وعظاتٍ

لا أطلبُ إلّا أن تُصغي

لأديرَ حديثًا مع نفسي

فأنا واليأسُ توحَّدنا في جسدٍ واحد

جاملْني إن بحثُ بنحسي

حمِّلْ أخطائي ثمنَ الحزنِ

وحمِّل أمسي

ذكِّرني أنّ كآباتي

ودخانَ سجائرَ راحلةٍ مَن يحجبُ شمسي

قد أبدو أكبرَ من سنّي

إياكَ بأنْ تذكرَ ذلك

سترى الشّيباتِ غزت رأسي

لا ضيرَ بأن تنظرَ نحوي

وتشيدَ بأسودهِ الباقي

أسودهِ المهترئِ الهالِك

جاملْني حتى في عمْري

وتغنَّ بتشريني الحالك

إنْ قلتُ مُحالًا صدّقني

أو قلتُ هراءً صفق لي

فأنا واليأسُ توحدنا في جسدٍ واحد

سأثيرُ نقاشاتٍ تبدو

قد عصَفَت من رجلٍ واثق

وبأنَّ القمّةَ في نفسي

لا تعرفُ سهلًا تسلكُهُ

مُنحدرًا جرجرهَا دومًا

كي يطحنَ قمَّتها الواقع

عزّزْ من ذلك

وانعتْني بالرّجلِ المرموقِ الحاذق

لن تخسرَ شيئًا إن هدهدتَ أساريري

لن تخسرَ إن باتَ الشّوكُ بخاصرتي

في وصفكَ لي

وحديثِكَ عنّي _لو كذبًا_ قطني وحريري

فأنا واليأسُ توحَّدنا في جسدٍ واحد.

السّادسةُ صباحًا

تبتعدُ حشودُ القمحِ

تلفُّ الحَسرةُ مِعْطَفَها

تَسلكُ تابوتًا حَجريًّا

تتعاطى أقراصًا... حُقنًا

تَمنَعُها إنجابَ المَوتى

تَبحثُ عن جُحرٍ داخِلَ جُحر

عَن قَبرٍ يَقبَلُ حيرَتَها والغُربةُ قَبر

لكن ما زالت ماضيةً تاركةً آلامَ البَيدر

بِحَقيبةِ سَفرٍ قَد وَضَعَتْ مرودَها الأكحل

ورَغيفًا مُشتاقًا للزّيتِ وحَفنةَ زَعتَر

وابتَعَدَت وابتَعَدَ البَيدَر

زَوبَعةُ النّسيانِ تُعَمِّقُ نِسيانًا فيها

وضَبابُ الآتي يُخفيها

يَعصرُ ذاكِرةً قَدْ تَذكُر

أنْ يَومًا كانَ لها جَذرٌ

أنْ يَومًا كانَ لها ظِلٌّ

أنْ يومًا كانَت تَتَعَمَّدُ

بمياهِ الثّلجِ وصَفوِ الكَوثَر

أنْ يَوما كانَت تَتَعَطَّر

قَد تَنسى أنّ الغُربَةَ مُوحشةٌ

والدّفءُ النّابِتُ قَد يَذبل... سُنبلةٌ حَمقى

والعُمرُ الأقصرُ قَد يُصبِحُ أقصرَ مِن أيِّ زَمان

تُرسَمُ خارِطةٌ ما أقسى

أن تُرسَمَ مِن غَيرِ مَلامِح

والوَطَنُ المَنسِيُّ المَخطوطُ بِـدفتر

قَد غادَر أيضًا

جَرَّ بَراءَتَهُ

والقَمحُ يُغادِرُ والبَيدَر

والكَهفُ المُظلمُ لا يُشرِق

والنّفقُ إلى أرضٍ أخرى

والجسرُ الفاصل والمعبر

فانطفأوا

وانطفأَ البيدر.

السّادسةُ صباحًا

مستسلمٌ لحضورِكِ المفاجِئ

واستنشاقِ تحيّتكِ الصّباحية بكافّةِ حواسي

مستسلمٌ للذّبحِ على طريقةِ المافيات

والاغتيالِ المباشر بطلقةِ في الرّأس

لدمعةٍ تتدلّى كغصنِ داليةٍ من جرحي

ورحيلكِ بعد كلِّ هذا بانتصارٍ كاذب

مستسلمٌ للبرد بعد انطفائك

أُهزم مرّةً أخرى

فمسافةُ الشّكِّ واليقينِ على بعد خطوة

وأنا هو أنا

ولا يكفيني تواجُدك لأقطعَ الشّك باليقين

يؤذيني البردُ وترتفع حرارةُ عمري الضّائع

وأنا في آخرِ درسٍ للشّجارِ أحظى بصفعاتِ الحيرة

قلبي يتعبني

وطفولتُك جزّارٌ يسلخُ رشدي

وقِصَاصُك مني لا يُشفي غليلَكِ وتقتصّين

مستسلمٌ لتكسّرِ الحزنِ على سندانِ خصرك

أن أقلِعَ من مطارات شجارنا مهاجرًا دونما عودة

أن أقدّم تذكرةً من شفاهي لخدِّيك

وأمضي إليك بكلِّ الضّجيج الذي يعتريني

نعم إنّني بعضُ مِن متناقضِاتٍ أبت أن تروح

فبعضي اللجوءُ

وبعضي النّزوح

نعم ضعتُ منّي كثيرًا

نعم كنتُ المحرِّضَ لبرجوازيتكِ بالحضور

لثقافتكِ المختلفة عني بالظهور

ثم ثرتُ عليكِ وعلى الطّبقيةِ التي ترتدينها

سريري كما تعلمينَ يجالسُ وحشتَه هذا الصّباح

لذا لا تثوري

أنا من يثور

لذا لا تقولي

أنا من يقول

فآخرُ ما قد يقالُ

يقالُ على جانبيِّ السّرير

سأقبلُ أن تَظهَري بعد هذا الصّراخ بدورِ الضّحية

وأرضى بكِ قاتلةً محترفة

سأساعدُك على إخفاء دليلِ الجريمة

ودفنِ السّلاحِ

ومسحِ القبلاتِ

وغسلِ الملابسِ الملطّخةِ بعطرك

فأنا مستسلمٌ لتبادلِ العتابات الطّويلةِ بقبلةٍ طويلة

مستسلمٌ للكسرِ الغريبِ في شعري من أجلك

للرّكاكةِ دون أن أشعرَ بالعار

للتّشبيهِ على طريقةِ الهواة

لرفعِ المنصوبِ

وخفضِ المرفوعِ

ما دمت القارئةَ الأولى لشعري

فاللغةُ الجميلةُ مَن تقودك إلى قلبِ مَن تحب

واللغة الحقيقيّة من تساعدُك على إرضاء من تحب

واللغة الأمُّ مَن تصنعُ منك طفلا

لا ينامُ إلا على صدرِ حبيبته

من تسمحُ لك أن تبكي في منتصفِ الليل

وتناغيك كي تهدأ

لذا تقتلني العبارةُ حين لا أقولها بداعي الحياء..

والاستسلام

حين تتأوّه في حنجرتي كحاملٍ أتاها الطّلق

كسنديانةٍ

تعبت من أعشاش العصافير المكدّسة دون أن تطير

كجدولٍ يخنقهُ سدٌّ ترابيّ من مواصلةِ المسير

تقتلني لأنّها أنتِ تمامًا... ولا أموت.

السّادسةُ صباحًا

أينَ أجدُني؟

أبحثُ عنّي في غرفةِ الضّيوفِ

في المطبخِ

فوق السّطحِ

خلفَ المنزل

في الجارورِ وفي الدّولابِ

وعند الجار السّابعِ

في قبوِ امرأةٍ ماتت مِن عامين

أبحثُ عند صديقاتي

في بيتِ صديقٍ كانَ معي في الأمس

أفتّشُ في هاتفي علَّ هناك دليلًا يوصلني لي

في الصّورِ

وفي الأبياتِ المنقوصةِ

في صندوقِ الوارد

أين أجدني؟

أسألُ هذا

أسألُ ذاك:

هل أحدٌ منكم شاهدني؟

جاءَ الليلُ وما زلتُ أفتّش عنّي

قَلِقٌ لا أعرفُ أين ذهبْت

تسألني الشّرطةُ: ما أوصافي؟

رجلٌ لا يمتلكُ لسانًا

أو يمتلكُ لسانًا عطّله الخوف

يلبسُ قبّعةً كي يخفي صلعتَه الجرداء

لم يعرف أحدٌ عنواني

أينَ أجدني؟

ما الجدوى من ذلك قل لي؟

جمهوري بعد غيابي عنيّ عامًا... آخِرُ مَن يخطر لي

جمهوري هو أنا

المسرحُ المكتظُّ أنا

الجالسُ في المنتصفِ أنا

وأنا أقيمُ أمسيةً لي

أقرأ لي

أستمعُ لي

أصفّق لي

وأهتف _مُتعجّبًا مُستغربًا مُنذهلًا_ لي

وأشكرُنِي على الحضور

ثم لا أعرفُني

أو لا أسمعُني إن كنتُ تكلّمت

أين أجدني؟

ما كانَ منهُ هو الذي قد كان منّي

شاءَ هذا الوجهُ أن يحتلَّني

والطّفل أطردُهُ ويأبى أن يروح

قد باعَ أعوادَ الثّقابِ

وكنتُ من يشري بضاعتَه السّخيفة

عاندَتهُ يداه فاستَلَفَت يداه يدي

ولم يُعدها منذ ذاك الحين

لستُ هذا

ليسَ هذا من أكونُ

وليس طيفي

ليسَ صحوي مَن أوى منّي لسُكري

ما الجدوى من ذلك قل لي

والوطنُ الآن هو المنفى؟

والوطنُ هو اللغز المحتاجُ لشطرِ القلبِ إلى قلبين

لفصلِ الجسدِ إلى جسدين

والوطنُ يحرِّضنا أن ننسى زمَن النّبوة

أن ننقشَ في شجر البلوطِ رموزَ الكبوة

أن ننحتَ من صخرِ الكلماتِ لغاتِ العالمِ

ونحطِّمَ فوقَ الصّخرةِ تلكَ.. العربيّة

قد لا يعنيني عَرقُ الفأسِ

وجرحُ المنجلِ

والمنشارُ ال يقطعُ فكري لاثنين

قد لا يعنيني أنّي أبحثُ عنّي من قرنين

قد لا يعنيني أنّي أسأل عنّي النّاسَ

ولا أخجلُ مِن كيفَ

لماذا؟

منذ متى قد غبتُ

وأين؟

لكن يعنيني ألّا ينكرني وطني

أن يعرفَني أكثر مما أعرف نفسي

أنّي في السّادسة صباحًا حين أفتشُّ عنّي

حين أضيعُ ولا ألقاني

أن ألقى مَن يبحثُ عني

أو ألقى وطني.

السّادسةُ صباحًا

الذّبحُ للعذراء يا يحيى

وتَوشوشَت تلك المطارقُ

مع فؤوسِ الخائنين

هراواتُهم مطرُ السّلامِ

عِصيّهُم عظمُ الأراملِ

والشّيوخ

شيءٌ تهَدّم في النّفوسِ

وفي الصّدورِ

وفي البيوت

بدا الإسمنتُ ملحًا لا يذوبُ

ولا يذوَّبُ

مثلَ دمع الباكيات

بعضُ القلوبِ كصخرةٍ

ولعلها المسجاةُ في قعرِ الخيانة

بعضُ القلوبِ كأرغفة

نارٌ تُسلّطُ في العشيِّ على القلوبِ

وفي تنانيرِ الثّبات

الملحُ صَخرٌ لا يذُوب

والأرضُ جفّفها حُداءُ الرّاحلين

الذّبحُ للعذراءِ

صاحَ الأشقرُ المهزومُ من نصرِ الجريمة

القتل فلسفةُ المدينة:

وهناك قد وقفَ الحمامُ بلا هديلٍ في الجِياد

وجثا الغرابُ على المآذنِ والقباب

واحتارَ أيَّ ديانةٍ يتبع!

تلك المغاورُ تتّسع

تضيقُّ أنفاقُ النّجاة

بين الحياةِ وبينَ خوفِ اللاحياة

والحَفرُ في خصرِ الفضيحةِ يتّسع

جلسَ الخواجا واضعًا قدمًا على قدمٍ

وتحتَ الأرضِ ناقةُ صالحٍ

وفوقَ الأرضِ هيكلُ عابرٍ

ما زادهُ _الآنَ_ الحضُورُ سوى انغراقٍ بالعبور

وخيمةُ البربريّ وكرٌ للدّعارةِ

والجواري والقيان

الدّهرُ أنكرَ وجهَهُ

وكذا الزّمان

ولم يتوالد البنيانُ أحجارًا

لم يُخلقْ

فهل يُخلق؟

وهل يُبنى من الأضغاث؟

أجبني أنتَ يا يحيى

القتلُ فلسفةُ المدينة

هم عن سرابٍ يبحثونَ

ونحن نلتهم السّراب

:هل تبحثينَ عن الضّباب؟

سألتكِ قدسُ الحائرين وكرّرت

ذهبت تصبُّ الماءَ في الطّرق الحزينةِ «صابرة»

وتصبّ فوق الماءِ دمعَ مخاضِها

تحت النّخيلِ تهزُّ جِذعًا

وتساقطَ الصّخرُ العقيم

كان طَلقًا مُرهِقًا

ماتَ الغلامُ قبيلَ سنِّ الخامسة

هاجرَ المنفيُّ قسرًا

فلسفاتٌ

فلسفاتٌ

فلسفات

ومدَّت قدسُنا يدَها

و«صابرةٌ» تنظّفُ وَحلَنا عنَّا

وعن وجهِ الشّهيدِ الألفِ

تمسحُ عارَ إخوتهِ

وتبقى القدسُ

يبقى الجرحُ

يبقى النّزفُ مقرونًا بسيّدةٍ

تهدَّمَ قصرُها

وتسيّدَ الخدمُ الرِّواقَ لخدرِها

فيا يحيى

وأنت الرّمزُ فوقَ الأرضِ

أنت الصّخرُ

أنت حجارةُ الأقصى

وأنت الميتُ المخلوقُ كي يحيا

أضعنا الرّمز يا يحيى

وأقصانا على جُرفٍ

أضعنا القدسَ يا يحيى

وكنتَ تعلّقُ النّاسف

فعلقَّ ذلك الأشقر

على أنقاضنا القبّة

فكيف ستُذبحُ العذراءُ؟

كيف؟

وكم من كيف أسألُ بعد أن أسأل؟

وأسأل حينما يمسي عقيدُ القومِ قصّابًا

وسيّدُ حيِّنا المهزوز جزّارًا

وأسألُ عنكَ يا يحيى

فأين ذهبتَ في هذا المساءِ الصّعب؟

وأين خريطةُ الأقصى

وأين فواطمُ الأقوامِ؟

أين «قنابلُ المولوتوفِ»؟

أينَ الشّاعرُ الكذّابُ؟

أين الدّربُ؟

أين القدسُ أخبرني؟

وهل في البالِ قُرطبةٌ

تجرُّ وراءَها أخرى؟

وأسألُ عنكَ يا يحيى

فأين ذهبتَ في هذا المساءِ الصعب؟

السّادسةُ صباحًا

شيئانِ قد حدثا:

حضوري واختفاؤك

لم تتّسع أخشابُ مسرحِنا لنا

لم نستطع إتقانَ آخرِ مشهدٍ

عرَّاكِ حزني مثلما عرَّى ابتساماتي جفاؤك

شيئانِ لا شيءٌ لأجل تناقضٍ

مرَّت بنا قطعانُهُ

نهشت مسافتَنا لكيلا نلتقي أسنانُهُ

قد عدتُ بي

قد عدت أحملُني على كتفي ويحملُني شقاؤك

هي مسحةُ الحزنِ الأصيلةُ

في ملامحِ مَن يفيضُ بها العناد

والضّدّ من شيء لهُ ضدٌّ

يُعيدُ به التّشابهَ كلّما قالت

أردتُ لكَ ابتعاد

هو عائدٌ

وكذا يعودُ الحبّ بعد الموت أحيانًا

وأحيانا يُعاد

فإذا بدا جرحًا فنحنُ جراحُه

وإذا استغاثَ بنا فنحنُ صياحُه

أو قاتلًا فجزاءُ ما اقترفت يدي وجزاؤك

شيئانِ قد حدثا:

ابتدائي وانتهاؤك

والأمرُ يبدأ لحظةَ الغضب المسافرِ بين جفوتها

وريشتِها

ولمعاتِ الحدق

والأمرُ ينهيهِ العناقُ لأنّه يُنسيكَ منعطفَ الرّجوعِ

ولا يريكَ المُفترق

هل قال قلبي ما لديهِ؟

وهل فؤادُكِ قد تكلّم دون أن يحتلَّ منطقَه النّزق؟

هل قال ما قالته عاشقةٌ أحبّت غيرَه

شتَمتهُ يومًا

لم تُطِق أنفاسَه

وصفتهُ بالحجر الأصمِّ

وبالمحنّط دون أن يغزو بيادقَها ثناؤك

قالت: سيرحلُ

لم يَعُد

في النّصّ أحداثٌ سيبعثُها الورق

في النّصّ أخرى لا يَرى دورًا لها

يتحدّثانِ ولا يَرى دورًا لها

يتبارزانِ ولا يَرى دورًا لها

تحنو عليه ولا يَرى دورًا لها

تحنو ولا تحنو عليه محاجرٌ

يشتاق رقّتها ولا يحنو بكاؤك

نادى عليها

لم تُجب

نادى صداها حين لا يرتدُّ منها ما يُريد

جذبَ البعيدَ بما استطاع فبات أبعدَ من بعيد

خرق السّفينةَ غيرَ أنّ البحرَ أجراها عنادًا بالغرق

ومضى بلا دورٍ ولا وهمٍ جديدٍ من جديد

من دونِهِ

من دون نصّ كان باعثَه القلق

من دونِ أنثى من ورق.

السّادسةُ صباحًا...

الموعدُ الأخيرُ ذاتُه اليتيم

ونصفُ ساعةٍ طويلةٍ مضى الزّمانُ دونها

تقودُها مذ ضاقَ صدري من وجودها شيخوخةُ

الثّواني

نأى المكانُ عن خطاي واثقًا أنّ انتظاري بات لي

مكاني

أعدتُ ما أودُّ أن أقولَه

حضَّرتُ جملةً قصيرةً أتبعتُها بقبلةِ الجبين والعناق

زرّرتُ معطفي كما يقولُ مِعطفي لألفِ مرةٍ

وكنتُ كلّما خلعتُه أجلستُه بجانبي

بجانبِ الصّراعِ في حوارنا الغبيِّ

حين لا يعودُ للحديثِ منطقٌ ولا سِياق

الموعدُ الأخيرُ ذاتُه اليتيم

كعاشقينِ تائهينِ في مكانِنا أفقنا

من جاءَ بي هنا؟

سألتُها

تكرَّرت في ذاتها

كأنَّ فصلَها الذي يجيءُ في أواخرِ الرّبيعِ

أو بدايةِ الرّبيعِ

يجيءُ حينما تريد

لكنّه الشتاء

هكذا يقولُ كلُّ شيءٍ حولنا

النّافذاتُ إن توشَّحت بما يلوحُ من إنارةِ الطّريق في

البعيد

القرقراتُ حين تعبثُ الرّياحُ بالمطر

أراهُ باحتراقِ جفنِها وحُمرةِ السّدودِ في عيونها

في السّقفِ حين لا يكونُ تحتَه سوانا

والنادلُ الحزينُ لا يريدُ أن يرى شرودَه سوانا

ونختفي إن مرَّ من أمامنَا مع أنّه يرانا

نهرتُ صمتَها ببسمةٍ حتى أعودَ ذلك الذي فقدتُه

ومنذ ذاك الحينِ لم يعد

أمتُّ خشيتي وكلّما أهلتُ فوقَها مواجعي لأستريحَ..

لم تمت

صفعتُ _دون أن ترى انتكاستي لساني_

صفعتُ ذكرياتي

منحتُني وقد خلعتُ معطفي الذي خلعته لألفِ مرةٍ

دقيقة

نهضتُ كي أرمّمَ الشقوقَ في عبارتي

وأهدمَ الجدارَ بينَ عزلتي وبين ما أريدُ من حقيقة

من ساعتين أنت جالسٌ هنا

من ساعتينِ لم تشِ عيونُها برغبةِ البقاء

من ساعتينِ تحتوي وجودَها

برجفةِ المرعوبِ من وجوِدها

كالنّادلِ الحزين أنتَ جالسٌ أمامَها ولستَ في اللقاء

لذا تمارسُ الرّحيلَ دائمًا

ودائمًا تعودُ من خلالي

لذا أراكَ قد رحلتَ دونها

رحلتَ تاركًا وراءك الكثيرَ..

من ضبابكَ المعجونِ بالظّلالِ

تركتَ معطفًا

تركتَ نادلا يصفّفُ الكؤوسَ ساخرًا مِن ممكنٍ..

على يديكَ قد غدا من المحالِ

من ساعتين أنت هاربٌ مخافةَ الرّجوعِ للأمامِ

تمدُّ راحتيك للشّتاءِ غاسلًا من عطرها يديكَ

ماسحًا نقاءَ ذلك العناقِ بالظّلامِ

حبيبتي

عليكَ أن تقولَ ذاك في رسالةٍ قصيرةٍ

ما دمتَ من فرارِك الأخيرِ قد تعود

عليكَ طالما أردت أن تقولَ ما أردتَ أن تعود

عليكَ بالكثيرِ من سخافةِ الرّجالِ

والقليلِ طالما أحببتَها من الوعود

فالموعدُ الأخيرُ بعد ألفِ موعدٍ

لا تستطيعُ من خلالهِ احتلالَها يتيم

والمعطفُ المتروكُ لن يكونَ في مكانهِ مُعذِّبًا

مُعذَّبًا

لكنّه في الذّكرياتِ كلّما استحضرتَها جحيم.

السّادسةُ صباحًا

كانت تقول صديقتي:

أنت التّناقضُ يا صديق

متواجدٌ في عالميْنِ

فكيف هذا الفظُّ يسكنُ في رقيق؟

متجانسٌ في منطِقَيْنِ

فكيف تنقذُ بحركَ المسجورَ من جوفِ الغريق؟

أيُّ احتفالٍ أنت فيهِ ولم تُضاحك زائرًا؟!

أيّ اتّساعٍ أنت فيهِ وكلُّ متّسعٍ يضيق؟!

مرسومةٌ تلك الملامحُ في العباراتِ الصّريحةِ

حين تخفيها بوجهٍ لا يصوغُ حقيقتَك

موهومةٌ مَن قد تراكَ مُسالمًا ومحاربًا

أو مَن تقولُكَ دون أن تُبدي لها ما أنتَ حقًّا

إذ دفنتَ مع الحديثِ سريرَتَك

مدموغةٌ أشياؤك الأخرى ببطءِ الزّاهدينَ

ولا أرى زهدَ الرّجالِ بناظريك

كم كنتَ نعشي!

كم دفنتُ مواقدي لمّا احترقت بها لديك!

إنّي اثنتانِ

وأنتَ تجمعُ بين شيئينِ استحالا أن يكونا واحدًا

إذ كيف تسكنُني وأنتَ بيَ الغياب؟

أو كيف تحضر حاملًا معكَ الذّهاب؟

مذهولةٌ تلك التي تحتاجُ دهشتُها لقولٍ لم يُقَلْ

لنقاشِكَ المحشوِّ بالفوضى

ومُقتضَبِ الجمل

لحوارك الشرقيِّ

حين تكذّبُ الشرقيَّ فيكَ بكلِّ ما فيهِ المُقل

فانثرْ سرابَك في الكلامِ كما أردتَ

فبعضُ ما فينا سراب

قد جئتُ دونَ فمي لأنّك لي فمي

قد جئتُ بالنّعشِ الذي

أُخرِجتُ منه وحلَّ فيهِ كما أردتَ ليَ العتاب

والآن تحضرُ في القصيدةِ مع وجومكَ مرّتين

إحداهما غضبًا وغصبًا

ثم تبتسمُ ابتسامتكَ الرّقيقةَ مثلما

تفترُّ عن شفةِ السّياطِ كما أردتَ لها ابتساماتُ العذاب

وأراكَ في الأخرى تقاتلُ أيَّ شيءٍ

لا لشيءٍ... بل لرغبتكِ الشّديدةِ بالعداء

هذا لأنكَ تنزفُ الشّعرَ الطريفَ من الرّثاء

تنثالُ منك حبيبةٌ

وحبيبةٌ

وحبيبةٌ أخرى وتنكركَ النّساء

قد شئتَ أن أبدو اثنتينِ

وربّما كنتُ اثنتينِ

فمَن أرادكَ أن تكونَ بداخلينِ؟

ومن أرادك أن تكونَ كما يشاء؟

السّادسةُ صباحًا

وحيدةٌ أصابعي

ولم تزل منذ ابتدأتُ جولةَ الكلامِ من خلالِها

تعاندُ الإفصاحَ عمَّا قد يقولُه المهزومُ في كِياني

ناقشتُها

لكنّها يفيضُ حبرُها بها

ولا تسيرُ في الهواء حينما

يلِوّحُ الهواءُ للجميع أن تجهّزوا

فيرحلُ الجميعُ دونها

ولا تعودُ تملُكُ الأصابعَ الوحيدةَ اليدانِ

أجبتُ بالغناء ألفَ مرّة

ولذتُ بالشّقاء إثرَ حسرةٍ

حتى بدا النّحيبُ قادرًا

أن يسحقَ الحوارَ بالكمانِ

على فمي تعشّشُ الطيورُ قد أتت

من قريةٍ خرساءَ لا يصيحُ حائرٌ بها

لا يستغيثُ عازفٌ

كسرًا لهذا الصّمتِ بالأغاني

أجالسُ المقتولَ من طفولتي

فلا تعودُ لي طفولتي

وتحجُبُ الخسائرُ الكثيرةُ التي عرفتُها

مكانَ قبرها

لأنّني أريدُ نبشَ قبرها

وحرقَها

ونثرَ ما يكونُ من رمادها

على طريقٍ قد تقودني يومًا إلى مكاني

الموتُ يا صديقتي.. لا أن أموتَ واقفًا

لا أن أموتَ جالسًا كما أظنّ أنّ ذاك قد يكون

فقد فقدتُ أغلبَ الشّهيقِ يوم مولدي

وطالما خسرتُ مَقعدي في مسرحِ الحياةِ مُرغمًا

فلم أكن مُمثّلًا

ولم أكن إن صفّقَ الجمهورُ بينهم مصفّقًا

ولا رأيتُ موقفًا عليَّ أن أكونَه

ولا رآني

الموتُ يا صديقتي _كما يقولُ قائلٌ

يرى الحياةَ مثلما تريدُ أن يرى جمالها_

نهايةٌ مخيفةُ

لبسمةٍ

لشهقةٍ

لنظرةٍ

للحظةٍ منزوعةِ الثّواني

لكنني أعيشُ في الهدوء مُذ عرفتهُ

ولا أعاني

أقول للغريقِ في دمي:

لو كنتَ ناجيًا مِن كلّ هذا الدّمعِ لا تغنِّ

فالأمرُ يستحقُ أن تكونَ عابسًا

والأمر يستحقُ أن تقودَ ثورةً في داخلي

أن ترفضَ الجمودَ حين راح حامِلًا مواجعي

أو حينما رماني

وحيدةٌ أصابعي

وحيدةٌ تجرُّ ألفَ ميّتٍ مُهمَّشٍ

وناجيًا يجرّ لي زماني.

المُهَشَّمَات

ما تيسّرَ مِن الشعر

إهداء

إلى مَن رافقَنِي خمسةَ أعوامٍ على الورق، وخيَّمَ في ذهني قبلَها وبعدها طويلا ؛ حتى توسّلَ لي أن نفترقَ بعدَما صارعَ بشراسةِ الشعراء مساراتِ الذاكرة والمنفى في سجن «سِنبَار» ومشفاها؛ قبل أن يقنعنَي عام 2066م أن تتحرّكَ _قبل إسدال الستارةِ عليه وعلى أحداثِ الروايةِ_ عقاربُ الساعةِ إيذانًا بحضورِ مَن لا يُحتسبُ الوقتُ إلّا حالَ حضورها، فكان له أو للقلمِ ما أراد.

إلى بطل روايتي «لستُ أنا» الشاعر: أصلان باكير.

«1»

أحتاجُ صدرًا

وآذانًا لتسمعَنـي

وقلبَ أنثى إذا ما دقَّ

أطربَنـي

وأن أُعيدَ إلى صوتـي نضارتَه

وأن يعيدَ زمانـي

مرّةً زمنـي

ها قد قطعتُ براري الأمسِ متَّكِئًا

على هشاشةِ مَن آذى

وآلمنـي

قلبي

وليس سوى قلبي وحسرتِهِ

ورقَّةٍ فيه

مُذ آلت إلى شجنِ

فلم أنادم بريئًا غيرَه أبدًا

ولا سواه ضعيفًا

حينَ أنكرَني

فلذتُ بالهجرِ كي يستلَّ خنجرَه

فاستلَّ رحمتَه

من مَغمَدِ الحَزَنِ

واشتدَّ بالصّفحِ

حتى صرتُ جثَّتهُ

وباللواتي بهِ يرأفنَ كفَّنني

فإن تناسى

فقد أنساهُ قاتلُهُ

ما قد تبقَّى لهُ

مِن ناحلِ البدَنِ.

***

«2»

يُقضى على مَن شرَّدتهُ الحربُ

مِن كلِّ فجٍّ

دبَّ فيهِ الرعبُ

لصٌّ ترابُ الأرضِ

لصٌّ خوفُهُ

والشعرُ لصٌّ

والأنينُ الصّعبُ

ورؤاه تبتلعُ الرّمالَ

فلا يُرى

إلَّا وقد لفظَت رؤاهُ الهدبُ

والعارفونَ بهِ

أضلّوا وجهَه

وتنكَّروا لجراحهِ وتخبُّوا

والعاشقون له

رموهُ بحقدِهم

فكأنَّما

ما أخلصوا وأحبُّوا

عبَراتُهم

آهاتُهم في قلبهِ

وبقلبهِ انطفأوا

ومنها شبُّوا

ظنَّ الوحيدُ ولم يزِد في ظنِّهِ

أنّ الجحيمَ طريقُهُ

والدّربُ

والمغنمُ

الفوزُ الذي يحتاجُهُ

ألّا يَفكَّ عُرى اليقينِ الرّيبُ

هو ثابتٌ

كسكونِ صحراءٍ عوى

ليفضَّ خاتمَ وحشتَيها

ذئبُ

عارٍ

كمنتصفِ النّهار وحائرٌ

ما فيهِ من حرِّ الهجيرةِ

جدبُ

والحيِّزُ الجسديُّ صلصالٌ

وفي

ذاك الفراغِ

أو الخواءِ القلبُ

والموجعاتُ... نعم

وشيءٌ زائف

ما إن تماهى في سرابٍ يخبو

يختارُ ذنبًا

مثلَ أيِّ مجاهرٍ

بذنوبهِ فيتوبُ عنه الذّنبُ

مُذ سارَ عاندهُ

الدمُ

النَفَسُ

الصّبَا

فدنا لكي ينجيهِ منه الشّيبُ

وأنا بلا جهةٍ لأدركَ وجهتي

أو خطوةٍ تمشي

وبطنٍ تحبُو

وحقيقتي عارٌ

وأحملُ وزرها

وشجاعتي

كجفافِ روحي عيبُ

ما الجرحُ

ما ألمُ البقاءِ وصرختي

-إن لم تجد ردًّا عليها- غيبُ

لو راحَ ينهشُني فمي

لعذرتُه

لكنَّهُ شيءٌ يسمى الحبٌّ.

***

«3»

لن يستريحَ

ولن يقاومَ نفسَهُ

بالكادِ يقوى

أن يحرِّكَ رأسَهُ

زِنزانةُ الكلماتِ تلفظهُ

لذا

خوفَ التّحرُّرِ

راحَ يحملُ حبسَهُ

وتناولَ اللاشيءَ

من أيَّامِهِ

وبجوفهِ المحشوِّ قهرًا

دسَّهُ

جفَّت بهِ الأسرارُ

وانبجست بهِ

عينُ البلادةِ

كي تصحِّرَ حسَّهُ

وعدوُّهُ رفعَ السّلاحَ

بوجههِ

فأشاحَ يرفعُ للمُدامةِ

كأسَهُ

ولأنّهُ المهزومُ

يجلسُ ساخرًا

وبزقِّ خمرٍ

سوف يَرهَنُ قوسَهُ

ويعايشُ الماضي

ولا يرضى بهِ

ويجرُّ بالصّوتِ المُهشمِ

أمسَهُ

وأمامَهُ الحطبُ الوفيرُ

ونـارُه

وبها إذا خمَدَت

سيرمـي فأسَهُ

يحيا التّنـاقضَ

لا لأجلِ غرابةٍ

بل لا يرى ما فيـهِ

إلا عكسَهُ

ويرى الظّلامَ فيستريحُ

ولا ترى

عيناهُ _إلَّا بامتعاضٍ_ شمسَهُ

يكفيكَ منهُ إذا نظرتَ

وجومُهُ

وبأن تُؤرِّخَ في القصيدةِ

نحسَهُ.

***

«4»

واشتقتُ للأشياءِ حتى أنني

لدخانِ من نفثَ الهوا

أشتاقُ

وظننتُ أنّ التّبغَ

يحرقهُ أبي

فأحاطني

لما قَضى الإحراقُ

***

«5»

حجَّرتَ لمَّا التوى

في الأرضِ تابوتُ

قلبًا يؤرِّخهُ في النّقشِ منحوتُ

عيناكَ أوكأتا من حلمهِمِ

سفنًا

والمدُّ يصرخُ في موجاتِهم: موتوا

فوضى يُطاردُها في الشّعرِ

إن نظَمَت

عقدٌ من الحزنِ

حولَ الصّوتِ مسكوثُ

لا شيءَ كالعشقِ يبرِي

كنهَ صاحبهِ

فالقرشُ في أصلهِ

قبل الهوى حوثُ

***

رقَّت تحاورُ مُوجَعًا

وضَحوكا

وأنا أحاورُ داخلًا صُعلوكا

أُبدي لها أسفي

ولستُ بآسفٍ

أرجو بهِ

ما ليسَ في أرجوكًا

ضعفٌ تردَّى

لا مكابرتي التي

أرضى بأن تجترَّني

وتلوكا

فالحزنُ زائرُنا الوحيدُ

ولم يزل

في ملمحي

ومحاجري متروكا

قبلَ الأوان؟

سألتهُ وأجابني

واسودَّ مبيضًّا

وذابَ هلوكا

وافترَّ عنّـي

كنتُه أو كانني

وسلكته

أو كانَ بي مَسلُوكا

والقهرُ

هذا القهرُ باتَ ملازمًا

عاقرته

فبيَ استحالَ سلوكا

والحبُّ من شفتيكِ

ليسَ مُصدِّقًا

مثلي حديثَك

بل يثيرُ شكوكًا

إنّي أمامَك واقفٌ

وأظنّني

مما سيحدثُ بعد ذا

مسفوكا

***

«6»

قطَّعتَ أوردتي

فكيفَ أعيدُ

ما قد قطعتَ

من الحشا

وأخيطُ؟

وأزحتَ عن عينيَّ كفّي مانعًا

ما كان يهمي منهما

وتميطُ

وعجنتني بالقاسياتِ

ورِقّتي

مع ما تركتَ

وما أخذت... خليطُ

حولي الذين خطفتَهم

كانوا هنا

وسواكَ لا حولي

وأنت تحيطُ.

***

«7»

لا يستقيمُ مع المماتِ تَحاملُ

لا والتّصبُّرُ

حينَ رحتَ تحاولُ

ذكَّرتَ باكيةً فلمَّا حوقلت

هيَّجتَ عبرَتها

وأنت القائلُ

هيجتَ مقعدَه

ليبكي «حطّةً»

وينوحُ في كفي العقالُ المائلُ

هذي اللفائفُ

من دخانك أسلمت

للرّيح مُشعلَها

فجاءَ يراسلُ

أبتـي

ويسـألنـي سريرُك هل مضـى؟

وأجيبـهُ: أبدًا

فظلَّ يسائلُ

أبتـي

وتبكيكَ السّلالمُ كلّما

ألصقتُ خدي بالنّعالِ أغازلُ.

***

«8»

ما تشتهي العينُ

لا يأتي به البصرُ

والفتكُ بالرّوحِ دمعٌ

فاضَ يستترُ

تبدو طريقتُنا في الحبِّ مزعجةً

فكيف في الموتِ

والأعصابُ تنفطرُ؟

لو يسمعُ القبرُ ما أتلفتُ من كبدٍ

ولا تركتُ دمي

في الشّعرِ ينفجرُ

لكنهُ الصّمتُ بعد الصّمتِ

يُغرقني

كموجةِ البحرِ

في الخلجانِ تنتحرُ.

***

«9»

ما ظلَّ من قلبي

قطَعتَ وتينَه

ووقفتَ عونًا للخريفِ على دمي

ولألفِ بابٍ قد سددتَ

مغلّقًا

وبألفِ نأيٍ قد نثرتَ تهشّمي

مِن كلِّ طاعنةٍ حملتُ ضفيرةً

ورتَقتُ ما مزَّقنَ

حالَ تشرذمي

فأخذتَ من نسجي

خيوطي كلَّها

وبترتَ _مأخوذًا بعدلكَ_

معصمي

فإذا اشتفيتَ

وما منحتَ دقيقةً

وحَطمتَ آنيةً تلمُّ تحطّمي

نادتكَ أعماقي

وعمقُ قرارِها

في رقصةِ المذبوحِ عند المأتمِ

أتكونُ في صفِّ الجريحِ

كنائحٍ

والدّمعُ أجّجهُ انشراحُ المبسمِ؟

فاجهزْ على روحي

عليك سلامُها

واسلمْ لجثةِ عاشقٍ لم تسلمِ

***

«10»

مِن لجّةِ الفقدِ

أم مِن حرقةِ الكبدِ

عقَّ البكاءُ

مشيبَ الصّبرِ والرّشَدِ؟

هم يدفنون أبي

إذ لستُ أحضنُه

ويسحبونَ يدًا

كانت تحيطُ يدي

أمشي

أرى جسدًا قد كنتُ أسكنُهُ

وليس يمشي معي

فيما أرى جسدي

يا أوَّلَ الحزنِ

ما خبَّأت آخرَه

إلَّا لتنزَعَ من آمادِه أمدي

***

«11»

أسالَ الوجدُ منّي

ما أسالا

ولملمني

وصيّرني زوالا

وجارَ فلا مجيرَ

وقد تمادى

ونالَ

فما ارتضى منِّي النّوالا

وَصلتُ الرّاحلين فزدت بعدًا

كأني قد سألتهمُ ارتحالا

فإن تدنو

فما حدث التقاءٌ

وإن تحنو

ففي قلبٍ تعالى.

***

«12»

أنا لستُ إلّا ما أنا

أو ما عليه

آويتُ إنساني

ومتُّ على يديه

ما اخترتُ أوجاعي

ولا استنزلتُها

لكنّها مثلي

ومذ جاءت لديه

حاربتهُ

كيلا يراني واهنًا

آذيتُ فطرَته...

الحُنُوَّ بنظرَتيه

وهجرتُه خلفي

تركتُ مصيرَه

فوجدتُني خلفي

ألاحقُني إليه.

***

«13»

وخُذلتَ؟!

أدري

قد رأت مخذولا

ورأت بداخلِ من رأت

مقتولا

وأردتَ منها أن تكون أخيرةً

شوقًا إلى الأولى

وهذي الأولى

وطُرِحتَ أرضًا

إذ وجدتَ أمامَها

مَن كانَ فيها

ساكنًا وحلولا

ففؤادُها مذ فارقتكَ

مُغلَّقٌ

وكذا فؤادُك

لم يكن مأهولا

***

«14»

يا أيها الماشي

إليها عاقدًا

دربَ الرّجوعِ

بقادمِ اللحظاتِ

الخلفُ

لا يمضي أمامَك إنّما

زوَّرتَ ذاكرةَ الخطى

بالآتي.

***

«15»

يعيبُ ذؤابتي

إذ شاب فيها

جديدُ الشّعرِ

مُغتالًا قديمي

وما عابَ البياضَ

وقد تجلَّى

على لغتي

من الصّدرِ السّليمِ

وبين تنافرٍ

ورصاصِ قصدٍ

أويتُ مِن المُغاضبِ للحليمِ

فإن وثبَ المشيبُ على سوادٍ

فقد هجمَ السّوادُ

على غريمي.

***

«16»

على أيِّ قلبٍ قد قسَت

وتجنَّتِ

وقد لُذتَ من رشقِ العنادِ

بصخرةٍ!

على أيِّ قلبٍ؟

إن قلبًا مُكدَّسًا

بها... سوفَ يَشقى

أنَّةً تلو أنَّةِ

على أيِّ قلبٍ؟

لو درَتْ ما تفرّقا

ولا لليدِ الخجلى

لصوتيَ... ردَّتِ

وما كنتَ ترضى

بل رمتكَ شموسُها

قبيلَ انبلاجِ المضحكاتِ

بليلةِ

وما قلتَ:

كانت كي تكونَ فكنتَها

وما قلتَ:

قد يقضي الغريقُ بطعنةِ

أردتَ الذي ما لم تردهُ

فرحتما

تسيرانِ سيرَ الذّاهبين

بجثّةِ

وأبكي الذي يبكي عليَّ

وهكذا

على ميّتٍ تهمي الدموعُ

بميّتِ

وأسلو

وقد يبدو سرابُكَ نخلةً

ولا شيءَ يجني

مَن أتاها بسلَّةِ

بكَ الشّعرُ رقراقٌ

يُمسّدُ قلبها

ومن غيرُها أولى بتلك الرّقةِ؟

ومَن غيرُها شقَّ القصيدةَ ساخرًا؟

ومَن؟

أنتَ تدري من طغَت وتولَّتِ

فلا أنتَ تمضي

أو تعودُ بصوتِها

ولا أنتَ للرّوحِ ال تئنُّ

بمُنصتِ.

***

«17»

أمضت حقيقتُهُ أوهامَهُ

فمضى

ولم يعد منهُ... أو منها

ولا وقفَا

تلكَ السّنينُ لهذا الوجهِ

خاطفةٌ

وكان يحسبُ ما في قلبِهِ اختطِفَا

يرضيهِ ما خلَّفَ الإصرارُ

مِن سفرٍ

نحو الجهاتِ التي

مَلّتهُ منتصفَا

لا بينَ بينَ

يرى الأشياءَ واضحةً

يرى الطّريقَ

ولا تهديهِ منعَطفَا

قد كانَ يعشقُها

قد كان؟!

ما فعلت

إلا وتقذفهُ

في الوهمِ مُرتجفا

ما مسَّدتهُ بعينيها

ولا ترَكَت

صوتًا على شعرهِ الحسيِّ

مُعتَكِفا

فكيف يبقى؟

دعيهِ الآن إنَّ بهِ

ليلًا تخرُّ به الأحلامُ

مُختلِفا.

***

«18»

حادثتَني

وعرفتَ ما أرجوهُ

كي لا يقالَ سكنتُ فيكَ

أتوهُ

وجهُ الحقيقةِ خائفٌ

كعشيقةٍ

كالقلبِ يلهثُ

خلفَ مَن طعنوهُ

كانَ الطّريقَ

زقاقَهم

ودروبَهم

ومَمرَّهم نحو الذي قصدوهُ

والجسرَ تلوَ الجسرِ

حتى استوطنوا

قلبًا سواهُ

وحينها هدموهُ

ورأيتهم يتمتعونَ بصدِّهِ

وبمنعهِ

عن كلِّ ما يرجوهُ

وأتيتَ أنتَ

وقلتَ: كوني

هل بها

إلَّا ويَشفى دونها المكروهُ؟

فإذا ابتسمتَ

فقد أعودُ قصيدةً

وتخالُني غيري لديكَ

وجوهُ.

***

«19»

دعيهِ يمرُّ ولا توقفيه

فما فيهِ فيكِ

وما فيكِ فيه

دعيهِ لما جاء من أجلهِ

فما كان يرضى

بأن تمنعيه

لئلَّا يراكِ

رأى كلَّ ما

يراهُ من المُقصياتِ المتيه

ألم يكُ من قبلِكِ موطنًا

لقلبٍ

بريءٍ

رقيقٍ

نزيه؟

وقد كانَ يبدو لهُ نفسَهُ

وقد كانَ

لكنْ

ذوى في شَبَيه

فلا تثقليهِ بما همَّهُ

وعن همّهِ

أنتِ

لا تسأليه

فها قد أتى دونَه

دونَكِ

وحقُّ المشتتِ أن تجمعيه.

***

«20»

لديها ابتداءُ الوردِ

دونَ خريفهِ

وفيها اخضرارٌ

قد يذوبُ بريفهِ

ويحملُ ودُّ العينِ

روحي بكسرِها

وقلبًا سيشفى _إن حنَت_

برديفهِ

ولا شيءَ عندي

لو تحاملَ حزنُها

عليها

وغصَّت بالبكا وشفيفهِ

ولا شيء إلَّا أن أكونَ

مُهشَّمًا

كنايٍ يذيبُ العزفَ

صوتُ نزيفهِ

كبردٍ يريدُ الموتَ

فوق شموسِها

فيجثو عليهِ الموتُ فوقَ

رصيفهِ

أجئتِ ومَن لي إن ذهبتِ

بجوقةٍ؟

تتيحُ لشعري أن يشي بعزيفهِ.

***

«21»

نثروهُ لمَّا راحَ يجمعُ

كلَّهُ

وبكلِّهِ ملَّ البقاءَ

وملَّهُ

حادثتَها

تصفُ الخريفَ فسخَّفَت

وجعَ الخريفِ

ولم تعاين فصلَه

حتى رأتكَ

فقلتَ: وجهي

قال: لا

ما كنتُ إلا في القصيدةِ

ظلَّهُ

ماذا ترين؟

وكان عند تشكُّلي

حزني يُتوئِمُني

ليخلقَ شكلَهُ

كم قيَّدت روحي يداهُ

مغاضبًا؟

كم مرةٍ شدَّ الشّقاءَ وحلَّهُ

قلبي لديهِ

فلا يكادُ يقولُني

ويكادُ يُخرسُني لأُمسي

قولَهُ.

***

«22»

حزني عتيقٌ

كوجهي مُذ صفَا

عبسا

أثورُ رفضًا

فينهاني وقد رأسَا

مرَّت به الأعينُ الدّعجاءُ

أهمَلَها

واختارَ عيني صديقتَهُ

ليأتنسَا

وأمَّرَ الصمتَ في زنزانتي

حرسًا

وصيّرَ القلقَ

الأوهامَ

لي عسسا

خُذ لحمَك الغضَّ

خذ وارحلْ

وقاسَمَني

ألَا يُعاودَني

خذْ... قالَ... وافترسا.

***

«23»

تبدو عليهِ كما عليكَ

متاعبُه

ويراكَ حظوتَهُ

وأنتَ مصائبُه

مَن جرَّهُ ليحبَّها؟

مَن ردَّ مَن؟

عنها لتُخفِقَ

أن يُحبَّ تجاربُه

كذَّبتَهُ لم تدرِ

حقًا ما بهِ

فالصّدقُ شقوتُهُ

نعم... ومناقبُه

وأردتَه صلبًا

تصلَّبْ وانفِهِ

كيلا ترقّقهُ كأنتَ

نوائِبُه

لو كنتَ فيهِ

لمَا قسا

لكنّهُ

في دفَّتيكَ

مهشمٌ ومتاعبُه

ماذا تفيدُ ال "لو"

دمتَ سحيقَهُ؟ ماذا؟

وقد مُلئِت بهنَّ

حقائبُهُ.

***

«24»

موجًا من العطرِ الفتيِّ

أذبُّ

وأنا وإن أنكرتُ ذاكَ مُحِبُّ

شيباتُ رأسي رافضاتٌ

إنَّما

شِعري النّديُّ كما فؤادي

شبٌّ.

***

«25»

يُفضي بمكنونٍ

ويكتمُ سرَّهُ

ومرارُهُ يطهو

ويأكلُ مرَّهُ

وربيعهُ القحلُ

الصّقيعُ

وهكذا

ما زارهُ مطرٌ

وحرَّض حرَّهُ

سبعونَ؟!

كلا

أربعون وعمرُهُ

يغتالُ مذْ ولدَتهُ أمٌّ عمرَهُ

جذبتهُ لوثاثُ الحنينِ

لصدرِها

والموتُ نحوَ بعيدِها

قد جرَّهُ

لا شيءَ.. قالت

مَن أتاها نازفًا

ونزيفُهُ منها

وفيها ضرَّهُ

ورمَت مواجعَهُ

رمَت أقراطَها

وتقلَّدَت

بَدلَ القلادةِ شِعرَهُ.

***

«26»

كُسِرتَ من نقرِ عصفورٍ

وصوتِ صدى

كُسِرتَ وحدكَ

واستيقنتَ لا أحدَا

كُسِرتَ

والرّيحُ قد تبدو مهشَّمةً

إن عقَّها مطرٌ

أو أنجبَت برَدَا

كُسِرتَ تعلمُ ما يَفنى

وتحفظُهُ

وليسَ يدركُ آتٍ

إن مضى الأبدا

كُسرتَ

من أنتَ؟

لا أدري لعلَّ أنا

مَن طوَّقتهُ يدي

مذ ضيَّعَت جسدا

كُسِرتَ

حقًّا؟؟!

شقوقي أنتَ تعرفُها

وما تركتُ بها

حتى بها فُقِدا

كُسِرتَ

يكفي

ولا يكفيكَ عاشقةٌ

إلا إذا كُسِرتْ

كي تُجمَعا عدَدا.

***

«27»

حملتُ ليلي وعينيها

وقلتُ: كفى

لي نشوةُ الخوفِ

والصّوتُ الذي ارتجفا

هاجرتُ منّي

ولم أترك سوى جسدي

أمَّا سواهُ فمُذ هرولتُ

ما وقفا

تبكي عليَّ

ومنِّي

ثم تحضنُني

والبخلُ يصرعُ في أشواقها الترَفا

قيَّدتُها زمنًا

أخشى انفلاتَ فمي

حتى إذا انتظرَتْ

في صمتهِ اعترفا.

***

«29»

جدِّل حروفَك

واعقدْ رايةَ الشّغفِ

واقطع قصيدك بالأحزانِ

والأسفِ

هل تستريحُ

وكلُّ الأرضِ متعبةٌ؟

والحزنُ منعطفٌ

أودى لمنعطفِ؟

ذكراهُ تأكلُ من عينيكَ حسرتُها

وبئركُ الصّمتُ

يُدني كلَّ مغتَرفِ

ما شاءهُ الله يجري في ممالكه

وما أرادَ له الإمساك

لم يطفِ

***

«29»

لها ما أرادَت لنا أن نكون

ففي ظَنِّها

أنّنا من ظنون

وأنَّ الحقيقةَ ما لا نرى

فلا عمقَ

في قارئاتِ العيون

وأنَّا وإنْ لم نخن كنهنَا

ففي غيرِ هذا

وذا خائنون

وأنَّا ورغمَ احتفالِ الشّهيقِ

بما تاهَ في زفرةٍ

ميّتون.

***

«30»

ولَكَم ذرفتَ عليَّ دمعًا نادمًا

ترجو الشّفاءَ

وتستحلُّ ودَاعي

ومنعتني مِن أنْ أراكَ

فخاصمت

عيني

وقد جافيتَها أسماعي

حتى انتهيتُ لما رأيتَ

وعادَني

في جمعِ مَن حضروا إلـيَّ

ضياعي

أخبرتهم:

إني أراكَ

وكلّما

أقسمتُ لاموني على أوجاعي.

***

«31»

دعها تمرُّ لما أتت

من أجلهِ

إني لمستُ ظلالَها

في ظلّهِ

يتعذبانِ

ويتبعانِ صدودَها

ولَكُلُّها

متناغمٌ مع كلّهِ.

***

«32»

من يكتبِ الشّعرَ

يدرِ أنّه وجعٌ

وأوجعُ القولِ ما منَّى

وما أمِلا

رافقتُه العمرَ

من عشرينَ أحملُه

فلا أراحَ

ولا قد أفرغَ الثِقلا

طاغٍ

ويسألُني عن دمعةٍ سُفِكت

حتى إذا اعتصرَتْ

من حرِّها اغتسلا

قد أنصفَ الناسَ إلَّا مَن يكابدُهُ

وجابَه الحزنَ في الأحداقِ

فاقتَتَلا...

***

«33»

قلبي تحجَّرَ

ثم صرتُ به حجر

والحزنُ يأسرُ في الكآبةِ

مَن أسَر

أصلُ الحكايةِ

أن يكونَ مُشرِّشًا

جذرُ احتمالكَ في التّعاسةِ

كالشّجر

أصل الحكايةِ

أن تكونَ مُحاربًا

ويكونَ أوّلَ هازميكَ

هو الحذر

وإلى مصيرِك أن تكونَ مُلاحقًا

في حينِ _تدري_

لا هروبَ من القدر.

***

«34»

ماتَ الكثيرُ

وأنتَ من آلمتني

فذبحتُ حزني صابرًا

وذبحتَني

لم أنتقِ مِن كلِّ ما استرجعتُهُ

في قهرِ فاجعتي سوى:

"يا ليتني".

***

«35»

ولربَّما قد شاخَ قلبي

ربّما

وكذا القلوبُ

مِنَ الهمومِ تشيخُ

سودُ الذّوائبِ

قد فررن إلى الصّبا

ليجيرَ حسرةَ ما مضى التّاريخُ

يا من يحطّمني بفنِّ صدوده

أدمى الفؤادَ

الهجرُ والتّوبيخُ

تحتَ السّكونِ إذا نبشتَ

مواجعي

ويكادُ ينشبُ في الأنينِ صريخُ

***

«36»

مَن أنتَ؟

أحيانًا أنا ورقي

والليلُ يعرفُ

أنّني أرقي

مَن؟

لا يهمُّ

قضيتُ العامَ أشرحُ لي

ما قد أكونُ

فكنتُ لي نزقي

طيشي

جنونـي

وأضلاعًا صنعتُ بها

فلكَ الخلاصِ

فصرتُ بي غَرقي

من أنتَ؟

لو ظلّي يُفسرُني

لقالَ يتبعُهُ في سيرِنا

قلقي

أمَّا عن الحزنِ

قد أرجوهُ مُبتسمًا

ألَّا يُراوحَ بينَ العينِ

والحدقِ

يكفيهِ لمعتُهُ

يكفيهِ ما فعلت

يكفيهِ إذ جلست

في مقعدِ الألقِ.

***

«37»

كنتُ قديمًا أسكنُ نفسي

أسكنُ ما يسكنُه الشّعرُ

وحبري

ثم وبعد فواتي منّي

سكنَ الشّعرُ كمثلي أيضًا

رجلًا غيري.

***

«38»

أُسقِطتُ منّي

في مسيري نحو نحوي

ثم سرتُ مجدّدًا.. وعزمتُ أمري

ثم في لحظاتِ ما قبل الوصولِ

وقبلَ أن تدنو خطايَ

لنلتقي... أُسقِطتُ منّي

وافترقنا قبل أن آتي إليَّ مجددًا

أو قبل أن ألقى الذي من أجلهِ

ضيّعتُ عمري.

***

«39»

أريدكُ ليْ... لا عليَّ

وأنتَ عليْ

بسحرك هذا... بصمتك هذا

بصوتك هذا الرّشيق الشّجي

***

«40»

تغفو الغصونُ على الغصونِ

ولا ينامُ سوى الورق

وعلى أنيني قد أنامُ

وقد يهدهدُني الأرق

سيَّان ما بين اشتعالي

وانطفائي

واتّزاني

والنّزق

سيان ما بين النّجاةِ مِن المواجعِ _صدّقيني_ والغرق.

***

«41»

بماذا تفكّر؟

ودوما يعيدُ السّؤالَ اتهامًا

ودوما يكرّر

ودوما أعيدُ الجوابَ احتضارًا

ودوما أكرّر

فإني ورغم ازدحامِي بنفسي

أفكر حقًّا بألّا أفكر.

***

«42»

وما زلتُ أبدو كشيءٍ تكسَّر

وتمضي وحيدًا

وأمضي وحيدًا

وفي السرِّ كان احتراقُ السّؤالِ

وكان الجوابُ الحزينُ المُعطّر

فماذا تغيّر؟

وهل أنتَ وجهي؟

ألا زلتَ وجهي؟

ومالي أرى فيكَ وجهًا تقعَّر؟

وهذه النّدوبُ

الخطوطُ

الثّنايا

أراها.. فلا تعترف بي صغيرًا

فهل من عذابي.. أنا منه أكبَر؟

أجبني

وحدّث قليلي قليلًا

فلا زلتُ أبدو كشيءٍ تكسّر.

***

«43»

أفيضُ

ومني يفيضُ انزعاجي بأنثى ترى الكونَ والكائنات

ترى الشعرَ والحرفَ والشاعرات

ترى ما أراهُ

وما لا أراهُ

وليست تراني

أمرُّ عليَّ

فألقى الذي ليس منّي مضى في عزائي

أنا لستُ أنتَ

وأقسمُ للقادمينَ بأنّي أتيتُ

ويقسمُ أني وهبتُ بحالةِ سكرٍ

ويأسٍ شديدٍ نبيذي

ووجهي

وقدَّمتهُ كي يؤمَّ _إذا لم أعد مَن شرودي_ المَعاني

وأنّي الذي قمتُ عن مقعدي

وأهملتُ شايي

وعلبةَ تبغي

وخلَّيتُ _خلفي لكي يستريحَ

لهُ زاهدًا أو جنونًا_ مكاني

تطاولتُ حتى انهزمتُ وما خضتُ حربي

وبارزتُ وهمي

وضمّدتُ ما لم يكن من جراحي

وأثبتُّ للرّيحِ أنَّ الطّواحينَ

لمَّا استبدَّت قواها أمامي

رمت بي حصاني

أفيضُ بكلِّ العتابِ الذي لم أقلهُ

بكلِّ الصّراخِ الذي يكسرُ الصّوتُ فيه انفعالي

ويرديهِ وسط المدى كالفراغِ

وتبدو بكلِّ الغرابةِ تلكَ

كتلكَ

كتلكَ

ككل اللواتي ظننتُ سيقطَعنَ لمَّا أقولُ اليدينِ

فقطَّعنَ دونَ اكتراثٍ... لساني.

***

«44»

لو شئتَ... شاءت

بيدَ أنَّكَ لا تعي في الحبِّ إلا موقِفَين

لا نصفَ تعرفُ كي توازنَ

بينَ رفْضِ المقلتينِ

وبين عشقِ المُقلتين

أو أن تفرِّقَ بينَ ما تعنيهِ وشوشةُ الخلافِ

مِنَ العنادِ

مِنَ انفصامِ الحالتين

آذتكَ؟

حالُ الحبِّ أن يؤذِيْ المغامرَ

والمكابرَ

أن يُمدَّ يديهِ كي تجدَ السّرابَ

إذا مددتَ يديكَ سرًّا

لا اليدين

فلتعطِها ما دمتَ لا تعطي النهايةَ شكلَها

بحرًا يضمُّ الغارِقَين

بيتًا من الوردِ الذي

لا تسكنُ الأغصانُ فيهِ بحجرتين

قُلها فلم تَحفَل ككلّ العاشقاتِ بما تقول

قُلهَا

ففي وسعِ الرّوايةِ أن تضيفَ لها السّطور

خذها إليكَ

وبثَّ ذاتكَ مرّةً أو مرّتين

واصنع قصيدتكَ الأخيرةَ

من دمِ الرّعشاتِ

مِن صمتِ المخاوفِ

حينَ يسكنُ كلُّ ما خبَّأتهُ

ما بينَ بَين

وامنح فؤادكَ للتي

لو في جوانحِها فؤادٌ.. آخرٌ

منحتكَ _كي تبقى وترضى_ الخافِقيَن.

***

«45»

المقاعدُ فارغة

كلا!

عليها الشّمسُ

بعضُ الأتربة

كلا!

عليها كلُّ من جلسوا عليها

كلُّ ما قالوه يومًا

كلُّ ما جهلوهُ من ألمِ الحقيقةِ

حينما تبدو الوعودُ الوهمَ

والعهدُّ المغلَّظُ بالبقاءِ هو الجوازُ إلى الأفول

إنّ المقاعدَ فارغة

كلا

عليها الآن يجلسُ عاشقان

سيقولُ شيئًا

سوف تضحكُ لا محالة

سيمدُّ كفًا كي تقولَ يداهُ شيئًا لم يقله

سيغادران

سيسلكانِ الوهمَ

تبحثُ عن شجاعتِها وتمضي

ثم تلتفّ الملامحُ حين يفترقانِ بالصّمتِ الطويل

سيعودُ

أدري

لم تعد أوجاعُه تصفُ الطّريق لعاشِقَين

سارا بعيدًا عنه

لم يحفل

مضى

قالت لعاشقِها: هنا

إن المقاعدَ فارغة.

***

«46»

قد يبدو أمامكَ الآن صخرةً

جدولًا من التّراب

وقد يبدو نهرَ موسيقا

لكنّه

وإن نظرتَ جيدًا... لم يكن إلّا سواه

هذه اللوحةُ الرّديئةُ هو مَن رسمها

وهذه الطّاولةُ الكئيبةُ هو من دقَّ مساميرَها

وهذه الرّوزنامةُ بتواريخها

وأيّامها

هو من ألَّفَها

لأنّه لم يكن إلا سواه

بإمكانك الجلوس ساعةً هنا

دعه يغنّي

قل لصوتهِ المزعجِ أن يترنَم أكثر

دع لنشازه الحقَّ بأن ينتفضَ بالحنجرة الجافّة

قل له أعد

وعندما ينامُ لا تسل:

هل كان يومًا عاشقًا؟

وقل لها إذا التقيتَ وجهها البريءَ عابسًا:

بأنَّه لما احتسى نبيذهُ

رماه من يديهِ خوفَ أن يعودَ للحياةِ

بالخطيئتين.

***

«47»

هنـاكَ

ولا بدَّ للقلبِ أن يستريحَ قليلًا

وتمضـي

ولا بدَّ من قَفلةٍ للبداية

ولا شكَّ أنّ النّصوصَ الأخيرةَ

تبدو على مسرحِ الوقتِ في المنتصف

ولا بدَّ للبسمةِ المشتهاةِ

بأن تسكنَ الليلَ يومًا

وذكرى الحديثِ

وصمتَ القصيدِ

وتسكنَ بعد الرّحيلِ النّهاية

هنـاكَ

وقد بالغت قطّةٌ بالمواءِ

البكاءِ

النّداءِ على من لم تعد من خطاه سوى جملةٍ

من حكايا قصيرة

وقد بالغت غير أنَّا وقفنا على بعد قبرٍ لنبكيكَ صمتًا

على بُعدِ أنفاسك الرّاحلات

كأنَّا قبضنا الشّهيقَ الأخير بعينٍ يُجمِّدها ما تراه

هناكَ... وما عادَ شيءٌ تلاشى هناك

ليبدو هنا

لذا يا صديقي سنغدو رحيلًا

لدى موعدِ السّاعة القادمة.

***

«48»

يأتيكَ... لكن ما أتى إلَّا ليطعنَ مقلتيك

يأتيكَ... تهربُ

عنكَ يبحثُ... حينها

تنضمُّ فيكَ... تلُمُّ نفسك مثلما

لملمتَ جرحكَ في يديك

يأتيكَ... ترفضُ أن يجيءَ

وكلُّ رفضٍ يستجيبُ للكمةٍ

أو صرخةٍ

لكن تحاربُ

من تحاربُ؟

إنّه شبحٌ يجرُّ حمولةَ الماضي إليكَ

ويدفعُ العرباتِ عزمًا

إنَّ فيها ما نسيتَ

وما كرهت

تشيحُ وجهكَ

خلفَ خطوكِ لم يزل

يأتيك... لكن ما أتى إلا ليطعنَ مقلتيك

تشتاقُها

حضرَتْ... حضرتَ لأجلها

ضحَّكتها كي تستغيثَ بصوتها

إذ هدهدت لما تغنَّجَ صوتُها

ما فيكَ حقًا أو لديك

لم تستدر لمَّا استدرتَ مُعاتبًا

كذِبًا تعاتُبها

وتعلمُ كم كذبتَ لقولِ ألف حقيقةٍ

جذَبتك:

يكفي

ألفُ صمتٍ لم يقل ما شئتَ عنكَ

فبعثرتكَ لكي تعودَ وعبرَها منها إليك

تشكو من الشّبحِ الذي

لا زال يلهثُ

تستجيرُ بعينها

تجري.. ويلحقُ.. إنَّما

تنزاحُ عنكَ وساوسٌ

شبحٌ تراءى جاثمًا

لمَّا اندفعتَ لصدرِها

تحنو وتهمسُ: لا عليك.

***

«49»

الضّوءُ أسود

وارتَدَت عيني لترمقَني بها

واستوثَقت ألَّا أقولَ سوى: استريحي

فاستراحت

مَن هنا؟

طرقَت على بابي وقالت: مَن هنا؟

كتكتٌّ عنّي دهشتي

وفتحتُ بابي

أو ذراعي

ثمَّ غلَّقتُ المسافةَ بالمسافةِ

واحتميتُ بها عليَّ وقلتُ: ذابت

حبرُها مَن راحَ يغسلُ موجتي

والحبرُ مَن سكبَ النّبيذَ

ومن تشجَّعَ أن يرمّمَني بها

فاثَّاقلَت

أو كانَ يغريها البقاءُ فلم يعد

للضّوءِ سطوتُهُ على جسدي

فهل كانا

وعادَ ووحدَها غابت؟

***

«50»

لم يعد يشربُ من وقتِهِ إلا كؤوسَ فراغهِ

ويجالسُ الحَطباتِ في تكوينهِ

فزّاعةٌ نظراتُهُ يخشى عليها أن تراهُ

فإذا رأتهُ اسَّاقطت أنيابُهُ

واهتزَّ شاربُهُ

ومالَ بكلِّ ما جمّعت سنينُ النحسِ فيهِ على حطباتهِ

قد يُشعلُ النّار الأخيرةَ

قد يصبُّ النّفطَ فوقَ رمادهِ

وسيحترق... لكنهُ متأنّقٌ بالصّبرِ يمشي دونَهُ

ويسيرُ فيهِ

ويحتفي بالرّفضِ منهُ

ولم يزل كيباسهِ مخدوعةٌ فيه الأماني

حين تنجبُ بعد حملٍ كاذبٍ رملًا

يؤولُ إلى حجر

لو جئتِ في الوقتِ المليء بقلبهِ

لاستقبلتكِ قصيدةٌ

ومضى يقولُك مثلما يحكيهِ في الوقتِ المميتِ فراغُهُ

فهو الممدّدُ كي يكونَ كصخرةٍ في الأرضِ

تنحتُها الرّياحُ

وبعدَ أن تغدو مكانًا يستحيلُ ثباتُها لغمامةٍ

حبلى بمولودٍ يُقال له المطر

لن تشهدي فصل الشّتاءِ

وما يكون من المطر.

***

«51»

أموتُ كفصلِ الخريفِ

ببستانِ مَن قصقصَت من قصيدي الشّجر

ومَن حرّضت دربَها أن يطولَ

ومَن لا يقولُ إذا قالَ شيئًا بأن لا يقولَ

ليحيا بموتي شتاءٌ طويلٌ

يخافُ المزاريبَ فيه المطر

أموتُ ومثلي يموتُ كثيرًا

لأنّي نفضتُ التّرابَ الذي جئتُ منهُ

وكتكتُّ من خطوتي ظلَّ وجهي الحزينِ

وموَّهتُ آثارَ يومي الطّويلِ

فلما أردتُ اغتنامَ الحياةِ أضعتُ الأثر

أموتُ وفي عينِها ألفُ موتٍ

وألفُ احتضارٍ

وفيها أنا أو بقايا قصيدي

ومَا ظلَّ منّي قبيلَ السفر

وفي عينها ليس يبقى بقاءٌ

وفي عينها ليس يُنهى انتهاءٌ

فلا أولٌ دون صعبٍ مُشيبٍ

ولا آخرٌ دونَ خوضِ الخطر.

***

«52»

لا شيء يحدثُ

بعضُ أرواحٍ مقطَّعةٍ هنا وهناك

آثارُ قنبلةٍ بكماءَ تجلسُ في الحديقة

سيّارةٌ فقدت بالقصفِ سائقَها

كوفيّةٌ نادى عليها من سيُقصفُ..

ذاتِ يومٍ كي تخلِّده القلوب

لا شيء يحدثُ

قد أتانا الموتُ قبل دقيقةٍ

جزَّ المشاعرَ والحروقَ ودمعتين

واختار أبسلنَا وسافر

تجلسُ امرأةٌ على تلٍّ من الزّيتون تنكرُ ما جرى

تحكي لطفلتها عن القبر الذي

يمشي صعودًا للتّراب

وجزيرةٌ بالخلف ماتت منذ قرنٍ أو يزيد

لم تعد جزءًا مهمًا في الرّواية

لكنّها قرأت عليها كيف أنّ الذّاهبين همُ الحقيقة.

***

«53»

تأخّرتُ جدًا

لأنِّي امتلكتُ انطلاقي وسيري

ولم أمتلك رغم حزمي قراري

تأخّرتُ جدًا

ولمَّا وصلتُ وقد كنتُ أجري

وجدتُ الذي لم يكن بانتظاري

هنا بانتظاري.

***

«54»

لم نعد نلتقي لم نعد

ومذ غادرَ الودُّ أرواحَنا لم يعد

فتورُ الحديثِ

الرّدودِ... العيونِ

وما كان فينا

بنا يبتعد

لعلِّي سأبقى على ما تبقَّى

ولكن ستلقى إذا عدتَ يومًا

مكانًا وحيدًا بهِ لم أعد.

***

«55»

لا بأسَ أن تمضي ولكن

لا تقل للنّاس مَن منَّا مضى

قلبٌ تحكَّمَ في رقابِ المفرداتِ

وفي رقابِ الهامياتِ لجائرٌ

حتى ولو عدلًا قضى

لا بأسَ

أدري أنّني في حاضري

مذ جئتَ تسكنُ حاضري

أنِّي زمانٌ وانقضى.

***

«56»

كثيرٌ عليّ

ولو كنتَ حتفًا سيقضي عليّ

كثيرٌ عليّ

أنا إن مررتَ وما كنتُ أدري

سأدري

لأنّي تحرَّك شيءٌ دفينٌ لديّ

وروحي أراها

ومن لا يراها تفيضُ اختيالًا

وتيهًا خفيّ؟!

لأنّي امتلكتُ وقد جئتَ نحوي

حقوقَ انتظارِ اليدينِ اللتين

غفَت في يديّ.

***

«57»

لم تكن الصدفةُ

ولا اختلاقُها

ولا الموعدُ المؤجّل

لم تكن المقاعدُ

ولا السّلالمُ المفضيةُ للقاءِ الأخيرِ

على درايةٍ بما قد يقال

النّادلُ لم يحضُر... وحقيبتُها أيضًا

والرّجلُ الجالسُ خلفي

ينتظرُ امرأةً

تتأخّرُ كالعادةِ عن موعدِها

شارِكْنا مهزلةَ الصّمت:

قلتُ ولا أعلمُ مَن حرَّض صمتي..

أن ينفجرَ بدعوةِ مَن يسخرُ منّي

حضرت أنثاهُ

وغادرت الجالسةُ معي

يسألني النّادلُ

لكنِّي جمَّعتُ حيائي معتذرًا

وأعدتُ المقعدَ

واستقبلتُ البابَ لكي أمضي

معتذرًا أيضًا عن دعوةِ مَن يجلسُ خلفي

أن أنضمَّ إليهِ مضيت

وتركتُ الصّمتَ

تركتُ الوقتَ على طاولتي.

***

«58»

اسألي عن آخَرِي

عن آخَرِي ال يحيا بعيدًا في ضلوعي

عن صمتِ ذاكرةٍ مراقٍ في الدموعِ

عن أيِّ شيء لم أقلهُ

ولم يقلني في ارتدادات الوقوعِ

لو تسأليني

لو فعلتِ... اسَّاقطت

تلكَ القصيدة حين أكتبها

من القلبِ الوجيعِ.

***

«59»

كانَ منِّي قبلَ أن ألقاهُ في سفرِ الحياةِ

كأيِّ ظلٍّ

لا يُظللُ حجمَهُ

يأبى انحسارًا كاملًا

ويخافُ لمسي

ثم يحيا رغم زعزعةِ المسيرِ إلى الأمامِ مُحمَّلًا

بالأمسِ يحملُ فوقَه في الدّربِ أمسي

كانَ منّي... حينَ عانَدْتُ امتدادي في العبارةِ

واستعاراتِ الزّنابقِ

وارتميتُ على البحورِ كقاربٍ

طعنتهُ أحجارُ الشّواطئ بالثّقوبِ

فإن نجا

هجَمت عليهِ سنينهُ

لكن بفأسي

غيَّرَتْنِي...عادةُ الأيامِ تغييرُ الأصابعِ مِن وظيفةِ

عازفٍ... لمجذِّفٍ

لمُنقِّبٍ في كلِّ أسرار الجهاتِ عن العميقِ

وليسَ في عمقي الكثيرُ

ولا القليلُ

ولم تكن سكنتهُ نفسي

غَيَّرَتْنِي... ثم عادت بابتسامتها المخيفةِ كي تراني

لم أبُح بالموتِ والوطنِ المُسجَّى داخلي

وهززتُ رأسي

ضاحكًا لم أكترث

وصرختُ بالشّيء الذي قد كان منّي: لا تعد

وسحقتُ حسِّي.

***

«60»

الشّاعرُ حين يحبُّ يعودُ بريئًا

يقبلُ أن يتعرّضَ للتّحقيقِ

وللقسوةِ في طرحِ سؤالٍ

كُرِّرَ رغمَ وضوح الرّؤية

يَقبلُ أن يُسأل عن آخرِ معجبةٍ دخلت صندوقَ بريدِه

يَقبلُ أن يُتَّهمَ بتلفيقِ وتحويرِ قصيدة

ويراوغُ حتمًا

ويُرقِّعُ ثوبَ الثّقةِ مرارًا

ويضيِّقُ دائرةَ الشكِّ إذا اتسعت

لكن لا يقبلُ في الحبِّ بأن يُطعنَ في هذا الحب

الشّاعرُ لا يُخفي آثارَ القُبلاتِ على أحرفهِ

لا يطردُ عطرَ امرأةٍ علقَ بياقةِ أسطرهِ

كي يطمسَ عن ياقتها الشّبهة

الشّاعر لا يرفضُ من تدعوهُ ليرسَمها

إن كانت بارعةً في دمجِ الألوانِ

ودمجِ الأحيانِ

ودمجِ القلبينِ بتلكَ الدّعوة

لا يرفضُ سيّدةً تأخذُها السّنواتُ بعيدًا

أن يذهبَ معها

فالشّجرُ العملاقُ له سحرُ التّعتيقِ

وسحرُ العربشةِ اللا يعرفُها

إلا طفلٌ.. لا يكبر فيه

لا يرفضُ أن يُرفضَ من قبلِ سماعِ شكايتِه

أن يُطردَ ملعونًا من رحمةِ عاشقةٍ غضبى

لكن لا يقبلُ أن يُنبذَ من قلبِ حبيبتهِ

لو خمس دقائق.

***

«61»

وابتعدنا

حين صارَ الحرفُ يبدو

من مشارفِ عالمينا تلّةً

لا هزةٌ تأتي على قمَّاتِها

أو رجفةٌ في قاعِها

تُلغي مسافاتِ الطّلوعِ

أو النّزولِ

أو الوقوفِ بنقطةٍ تعني التقاءَ السّاكِنَيّن

نحتاجُ كسرَ عقاربِ السّاعات في نظراتِنا

نحتاجُ طمسَ حديثِ داخلنا بصرخةِ صامتٍ..

من ألفِ عام

نحتاجُ نزعَ قناعِ مَن يحكي لنا عنَّا

ومَن يحكي كلامًا لا يوافقُنا

وفيكِ يسكنُ القائل

يثرثرُ عن فراغِ الرّوحِ

يحكي دونما قلقٍ

عن الوقتِ ال هدَرنَا فيهِ أعوامًا

من الرّوتينِ والتّسويفِ والحاضر

مسافاتٌ ولم تطوَ

وما قصَّت أيادينا

حجابَ البردِ كي نلقى أيادينا

وما قفزت طفولتُنا على أكتافنا تلهو

ولم تتشقلبِ الذّكرى لنضحكَ من سخافتها

أنا في مقعدي حجرٌ

وأصنامٌ مشاعرُك

وتلّةُ صمتِنا فينا تحولُ بأن نحطِّمَنا.

***

«62»

أعيشُ بنصفي... فقد ضاعَ نصفٌ

وغارت طلولٌ بوحلِ السّراب

وقد بات نصفي الذي قد تبقَّى

رهين احتراقِ النّدى بالعذاب

وكنّا صغارًا فلمّا أفقنا... وجدنا بأنّا أضعنا الشّباب

وها أنت تمضي كما جئتَ دومًا

بشيءٍ من الظلِّ أو من تراب

ومن يكتبِ اللهُ دربًا عليه... فلا مِن طريقٍ إليها سيُهدى

ولا مِن شِعاب.

***

«63»

مدُّوا أياديهِم فلم أمددْ يدي

ماذا سيجني من رجوعِ الأمسِ للدّنيا غدي؟

نصفي من الدّنيا الشّبابُ وقد مضى

بحديثِ غصّتهِ وشقوةِ مولدي

مدُّوا أياديهم فقلتُ لهم: دعوا

طيني يمارسُ حقَّه في أضلعي

لا وقتَ عندي للنّجاةِ... ولا الحياةِ

ولم أرد

وعدًا يؤخّرُ في المنيةِ موعدي.

***

«64»

التّعساءُ يا حبيبتي

لا يجيدونَ العشق

يكتبونَ الشّعرَ أحيانًا

يركلونَ مؤخّرةَ الفلسفةِ أحيانًا

يشربونَ الشّاي بالنعناعِ عوضًا عن القهوةِ أحيانًا

غير أنّهم لا يجيدون العشق

التّعساء يا حبيبتي

لا يكترثون لزقزقة العصافير

وموسيقا موزارت

لا يتلذّذونَ بافتراسِ المطر للأرصفة

ولا بابتلاعِ التّلال لشمسِ حمِئة

جميعهم يفكّرون أن يترجموا وجودهم لقصّةٍ

أبطالُها..

كومبارسُها...أحداثُها العظامُ في دمائهم

وحين لا تكونُ

وحين لا تكونُ في دمائهِم يسارعونَ..

باحتساءِ حزنِهم...

ويرحلون.

***

«65»

كلّ الدروب أضعتُها

وأضعتُني

حتى سوايَ رأيتُ في مرآتي

متفحصًّا وجهي

ولستُ بعارفٍ

إن كنتُ غيري ما أرى

أو ذاتي.

***

«66»

نعم... نعم هذا أنا

شِعري

هو الشّعرُ الحزينُ وإنما

سرقوا من الأشعار ياءاتِ النّدا

صوتي

هو الصّوتُ الرّخيمُ وإنّما

قد ضاعَ في بُحّاتِهِ ذاك الدّفا

وجهي

هو الوجهُ الوسيمُ وإنّما

تركَ الزّمانُ

- بُعيْدَ حرثِ شبابِه-

حُفَرَ المرارةِ والعنا

تركَ الشدوخَ

وكلَّ جرحٍ غائرٍ

ليدلَّ أبياتَ القصيدةِ

كيف تعتصرُ القصيدةُ في الدِّما؟

***

«67»

لا تعتذرْ... فالعذرُ يمنحك الخلاصَ

ويمنحُ القلبَ الأملْ

والعذر يجتثُّ الذّنوبَ

فكيف يُرحمُ مَن قَتلْ؟

***

«68»

لم يمت يا جارتي العنب

بل إنّها عرائشُ الحديد

مذ سوَّسَ الخشب

وعندما يموت تحتهُ الحديد

نظنُّ مَن يموتُ وقتها العنب.

***

«69»

مصابٌ بعيارٍ طائش

هذا جوابي

بالرّصاصة التي تمنح القلبَ ورمًا دماغيًا

والشّرايين انفلونزا حادّة

مصابٌ بالدّهشة والحيرة والخوف

بالقلق من الحلم الرّافض أن يندسّ بأيّامي

مشلول هذا العقلُ

وأفكارٌ عرجاءٌ تتنزّه فيه ولا تتعب

أسأل وأجيب

وأجيب وأسأل

والطّعنة من تتسلّل في هذا الليل كغانية لفراشي

سقطت من عمري في هذا الليل الموحش ليلة

وأخاف بأن أسقط معها.

***

«70»

صُدمتُ مرّتين

صدمتُ بعد أن جلستُ في مكانها

أراقبُ النّجوم

وقالت النّجومُ للنّجومِ:

من يروم؟

وكنتِ حين ساءلت

وحينما تحدثت في صحبةِ الغيوم

وقلتِ للغيومِ في خباثةٍ:

دعيه للنّجوم

ومرّةً صدمتُ من خيانةِ النّجومِ للعيون

وقد ظننتُ حينها

وكم ظننتُ حينها؟!

بأنّها بريئةٌ

رقيقةٌ

صديقةٌ

ووحدهُ الإنسانُ مَن يَخون.

***

«71»

خشبٌ هو الجسرُ الذي

يمشي عليه المرهقون

خشبٌ عظامُ اللاهثينَ المتعبينَ

ويركضون

خشبٌ هو القلبُ الذي

استلبَ الدّماءَ من الدما

خشبٌ هي الرّئةُ التي

جعَلَت هواءَ الكادحينَ جهنَّما

فهل تتحوّل الدّنيا

وما فيها إلى أخشاب؟

وهل _مِن غارسٍ يحنو على شتلاتهِ قلِقًا_

أحوِّلُني إلى حطّاب؟

***

«72»

وحيدةٌ

وحيدةٌ لفافةُ تبغي

وحيدٌ دخانها

طويلةٌ تلك المسافةُ بين عقرب الثّواني

وانتظاري

وهذا اليوم ككلِّ يوم منذ عامٍ ونيِّف

يأتي مُعفَّرًا بالوساوس

ملطّخةً ثيابُه بالبلبلة

وحيدةٌ هي اللحظةُ

ونظرةُ الغرائبيةِ في عينيها

وما تحتويهِ مِن صورةٍ بيضاء

وحيدةٌ لفافةُ تبغي

وفمي المكدَّسُ بالمرارة.

***

«73»

زارتني والدتي بالأمس

وأنا في سِجني أتقيَّأُ من جسدي غضَبَه

وأنا من سوطٍ أدمنني

قُصقِصتُ تمامًا من ألمي

ووقفتُ فما عرفَت منّي

مِن أخضرِ جذعي وقطافي إلا حَطَبَه

نَزعوا الأصفادَ

وما نزعوا من روحي القيد

نزعوا الأغلالَ

فما اسطَاعت إطلاقَ اليد

فاستلَّت صبرًا

تحضنُني كالعينِ إذا حضنت جفنًا

وامتدّت عبري

عبر اليومِ التّائهِ فينا نحو الغد.

***

«74»

الشّرقُ لا يؤوب

فمذ مضى حصانهُ

ليشربَ النّبيذ في جنائز الشّعوب

ويكرعَ الكؤوسَ في الرّقي والسّقوط

ونحن في انتظارهِ

لعله يؤوب

فهل هناك غيرُنا

يفاوضُ الشّروقَ عن سفوحنا بأن يغيب؟

يفاوضُ الظّلامَ بعدَ أن يحطِّمَ السّراجَ

والمصباحَ في كوَّاتنا بأن يسود؟

وهل هناكَ غيرُنا

يعيشُ في انفصامهِ؟

فربعهُ خطيئةٌ

وربعهُ إنابةٌ

وربعُهُ قنوتُهُ

وربعُهُ جحود.

***

«75»

آخرُ الأمنياتِ... إبريقُ ماء

آخرُ الأمنيات الصّغيرة... ماء

يُحممُ كفًّا عليها الدّماء

يزيلُ الخسارةَ عن هذه القطعة البالية

توضّأ... فهذا التّراب رمى بعد نحرِ الدّروبِ

رمى اليابسة

فلا تَتَيمّمْ بما داسَه الفكرُ بعد الحضارة

ففي كلِّ شبرٍ هنا أو هناكَ

مصانعُ مدميَّةٌ دامية.

***

«76»

كناي ٍيبوحُ بسرِّ الكمنجاتِ لمَّا انجرحنَ

أبوحُ بحزني

حدودي الصّحارى التي دون جدوى

ولا يعرفُ الشّوكُ فيها المعاني

وصبّارةٌ فوقَ تلِّ من الصّوتِ

والصّمتِ أيضًا

وأنفخُ مما أعاني فراغي

ويُقسِمُ مما أعاني يعاني

أحرّكُ كفي

ووجهي

وبعضَ الزّفيرِ

وبردَ المكانِ

وأفضي إليَّ كثيرًا بعزفي

كثيرًا

بحجمِ امتدادِ الثّواني.

***

«77»

وحيدٌ.. ومثلي سيبقى وحيدًا بهذا اللّقاء

وحيدٌ... فأيني؟

وأين القصيدةُ؟

أين النّساء؟

وحيدٌ...

فلا أنتَ تأتي

ولا الموت يأتي

ولا ينتهي عمرُ هذا المساء.

***

«78»

أتيتُكَ دونـي

تركتُ أمامي ورائي وجِئت

وجئتكَ دونـي

لأنـي إذا ما التقيتك كُنتْ

وكنتُ أنـا

مثلَ شعري تمامًا

فلمَّا انتهينا كشعري انتهيت

وكنتُ أنـا

ثم كنتُ احتمالي

ومن بعد هذا

أنـا كنتُ أنتَ

وإيّاكَ كنت.

«79»

كانت تصرخُ... لا تسمعُها إلّا الصحراء

كان بعيدًا عنها

أبعدَ من وطنٍ حطّت فوقَ شواطئِه سفنُ الغرباء

واحتدّت حين أماتَ القمرُ الليلَ ولم يأتِ

واحتدّت حين الشمسُ أذابت

عبر الوهمِ الساكن فيها

ألفَ نهارٍ... ألفَ وداعٍ

ألف عناقٍ... ألفَ لقاء

وانتظرا دومًا واحترقا

واحترقَ المقعدُ حيثُ انتظرت نادمةً

واحترقَت شفةٌ واحترقتْ

من ركوةِ حزنٍ قهوتُها... واحترقَ الماء.

تمت بحمد الله